

الكلّاّظ الهنّديّة المَعْربَة

من ماضٍ هرّوحة

الأدّكتور محمد يوسف
أسّاذة اللغة العربيّة - جامعة كراتشي (باكستان)

أوريما إلى الشرق الأدنى » (الحضارة الإسلامية ، 1950 ، ص 4) . كذلك يعتبر اهتماء واسكو دي كاما (Vasco da Gama) إلى طريق الهند نقطة التحول في العلاقات بين الشرق والغرب ، وحقاً لمن كانت صنفته تفوق صنفته أبي غيشان في الخسارة والغبن ، فهي تلك التي جعلت أسد البحر ابن ماجد يقود رائد البرتغاليين إلى بناء كاليكوت (Calicut) في سنة 1498 م .

تأثير تجارة الهند والصين في التطورات السياسيّة بين الامّ الشرقية والغربيّة معروض عند كثير من المؤرخين ببارازه وتقدير خطورته ، الا أن هناك ناحية أخرى طالما بقيت غامضة مطوية لم تلق الاهتمام اللائق بها الا منذ زمن قریب ، الا وهي تأثير العلاقات التجارية بالهند وما وراء الهند في حضارات الفرس والعرب والروم في العصور القديمة والوسطى ، ولا اجد ما أقدم به لهذا الموضوع احسن مما كتبه البروفسور هيرن (Heeren) العالم المتخصص في العلاقات التجارية الدوليّة القديمة وهذا نصه :

لم تزالت الهند منذ أقدم العصور بوفرة وتنوع انتاجها النباتي والحيواني والمعدني كما أنها اشتهرت بجودة الصناعات المختلفة المرتكزة على ذلك الانتاج الطبيعي ، ثم هي تصاحب من الناحية الشرقيّة بلاد الصين التي اختتمت بطائفة أخرى من الحاجيات والكماليات التي لم يكن للعالم الغربي بدمتها ، ومن هنا نشأت « التجارة الشرقيّة » التي تنافس عليها المتناسون من الفرس والعرب والروم ، وأخيراً أقوام أوروبا الغربية ، اعني البرتغاليين والفرنسيين والهولنديين والإنجليز ، وقد استمرت هذه التجارة العالمية تجري من الشرق إلى الغرب حتى غير مجرى الألات والمخترعات الحديثة وما ادت إليه من الانقلاب الصناعي والتقدم الاقتصادي في العمالك الغربية .

لقد كان لهذه التجارة اثراً لها الفعال في مداولة الأيام بين الناس ، فمثلاً يقول العلامة بارتوليد : « صارت ایران مزاحمة قوية للدولة الرومانية في زمن الساسانيين ... واستولت برا وبمرا على طريق تجارة الهند والصين ذات الخطّ لجميع العالم المتحضّر » وبهذا الحادث يبدىء انتقال التفوق في الحضارة من

الجغرافي ، أكثر تلك الشعوب اتصالاً وحرماً على الاحتفاظ بدورهم في حركة استيراد المنتجات الهندية المختلفة ونقلها عبر أراضيهم إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ولن كنا نأسف حقاً لعدم وجود المصادر اللازمة للحصول على معلومات وافية عن نشاط العرب في هذا الميدان فيما يتعلق بالعصور السابقة للإسلام ، ففي وسعنا أن نتلقى هنا النص بالرجوع إلى لغة العرب وأدابهم (1) ودراستها دراسة مقارنة إلى جانب اللغات الهندية مثل ما فعل العلماء الإفرنج بشأن دراسة علاقات الروم بالهند ، وبما أن العرب كانوا في موقع وسط بين الروم والهند فقد ثق بحوثهم إضافة على العلاقات العربية الهندية إلا أنها ، بطبيعة الحال ، إضافة جانبية فقط ، أما موضوع العلاقات العربية الهندية بالذات فقد يقي مغموراً مجدوداً لا شيء إلا لعدم اتساع علم التشييرين الأول والمعنيين بالمصراب والدخل في العربية إلى الهند ولغاتها ، نراهم - وكثير منهم يتبعون إلى أصل فارسي - يقتصرُون على ارجاع الكلمات إلى الفارسية ، وفي بعض الأحيان يقرون حائرين أمام كلمات لا يجدون لها أصلًا بالفارسية فيأتون بتعليلات من الخيال (2) إن دلت على شيء فهو أن الكلمة عدت غريبة في نظرهم ، وأخيراً لفتت دراسات الغربيين النظر إلى هذا الموضوع الشيق فما قبل عليه العلماء الهنود بجد واهتمام ، وفعلاً أمرت جهودهم ثمرة طيبة من حيث أنها مهدت الطريق أمام الباحثين في المستقبل إلى ميدان واسع .
بكر .

• / *

هناك ثلاثة طرق سارت عليها تجارة الهند إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط :

"We too often find ourselves without the information necessary to follow the course of trade into the most remote regions; but when we meet with the mention of articles which are unquestionably peculiar to certain countries, we are warranted in concluding that a communication then existed with those countries, though we may be unable to define its nature and extent. A piece of sugar or a morsel of pepper in a neglected corner of a villageinn would be a certain proof of the trade with either Indies, even if we possessed no other evidence of the commerce of the Dutch and English with these countries." Heeren, 139-40.

(2) راجع مثلاً تحقيقنا عن « الفالج » و « القلقى » والكلام على « الشلال » في الصفحتين التاليتين .

"Of all the divisions of Asia the southern, containing the territory of Hindustan, is distinguished by the richness and diversity of its productions. Here we not only find, with very few exceptions, all the products of other parts of civilised Asia, but so great a variety peculiar to its own climate, that it would appear as if a new and more beautiful creation had sprung up under the hand of nature. Nearly all the spices, which become necessary to mankind in exact proportion to the progress of luxury and refinement, have at all times been peculiar to this region, while two of the most important articles used in clothing, viz., cotton and silk, were first produced here, and continue to be so in an especial degree, though their cultivation has been gradually extended to other countries The influence which an intercourse with India may have had on the civilisation of mankind, is a question worthy the close attention of the philosophical student of history; and one which, notwithstanding the important illustrations it has of late received, has been by no means sufficiently elucidated. It is of the greatest consequence to ascertain the channels through which, at various periods, it found its way, or into which it was conducted; and the whole course of history tends to prove that the countries which became the staples or depots of this commerce, uniformly attained a high degree of opulence and refinement; which, however, gradually changed the habits and corrupted the manners of their inhabitants; at the same time that these were softened, sowing among them the seeds of luxury, and consequently of decline and ruin." A. H. L. Heeren: *Historical Researches into the Politics, Intercourse and Trade of the principal Nations of Antiquity*, Oxford, 1833, vol. I, pp. 35-56.

إذن كان من أثر تجارة الهند أن تطورت سبل المعيشة وأساليب الحياة ، بل وتغيرت الأمزجة والطابع لغير واحد من الشعوب القاطنة غرب الهند، وغنى عن القول أن العرب ، بالاشتراك مع الفرس سكان الخليج الفارسي ، كانوا ، بطبيعة مركزهم

(1) يقر الاستاذ هيرن هذا الأصل بقوله :

وأعز أصناف الإبل عند العرب « البختية » وهي على حد قولهم « الإبل الخراسانية تنتق من بين عربيبة وفالج » (اللسان) والفالج : البعير ذو السنامين... يحمل من السندي للنحلة (الصحاح) وصف الفالج بهذه الصفة ابن حوقل سنة 350هـ (6) والمتدسي سنة 375هـ حيث يقول هو الآخر :

(من خصائص السندي) « الفالج الذي تراه بالشرق وفارس يولد البخاتي وهو أعظم من البخت له سنامان مليح لا يستعمل ولا يملأ إلا الملوك ولا تكون البخت إلا منه » (7).

والفالج كلمة سندية محلية والجيم فيها علامة العجمة لا غير مع أن بعضهم لم يعد مهم التعليل بأن الفالج « يسمى بذلك لأن سنامه نصفان » (الخصم 135/7) !! وكذلك البختية « دخيل في العريبية اعجمي مغرب » (اللسان ومثله في المخصص 68/7) عن صاحب العين). اذن مما هو أصل الكلمة ؟ لم ينصوا عليه بل ربما لم يهندوا اليه حتى ان بعضهم اجترا على القول بأن الكلمة عربية (انظر اللسان) ... على كل حال ما من شك في ان « البختية » لم تكن غير « الإبل من » Bactria .

ومن الجدير باللحظة ايضا في هذا الصدد ان أصحاب المعاجم قد فرقوا ، جريا على عادتهم ، بين مادتي « بخت » و « بختر » الا ان مشية الجمال البختية طوال الاعناق ذات السنامين هي اشبه شيء بمشية الخيالة وقد جرت العرب على هذا التناول في قولهما « تفختت » من مشي الفاختة (المخصص 109/3) ومن الثابت ايضا انها كانت تصنف النساء « بالبخت » قال الشاعر :

ونيهن من بخت النساء سبطنة
تكلاد على غر السحاب تروق (9)

1) برا من المرات على الحدود الشمالية الغربية للهند الى بلخ ، ثم على خط سير القوائل شمال سحراً كرمان الى المدائن الى اسطاكية والموانئ المجاورة لها .

ب - بحرا من الساحل الغربي للهند الى الخليج الفارسي مصعدا بالفرات ثم برا الى اسطاكية والموانئ المجاورة لها .

ج - بحرا من الساحل الغربي للهند الى ساحل عمان الى ساحل اليمن ومن هناك اما على طول ساحل البحر الاحمر او على خط سير القوائل الى موانئ سوريا وفلسطين .

غنى عن القول ان الطريق البري استخدم قبل ان يستخدم الطريقان البحريان ، وفعلاً وجد علماء الآثار ما يؤكد ان العلاقات بين ارض الانهار الخمسة (البنجاب) وارض الرافادين ترجع الى عشرات القرون قبل عهد التاريخ المنظم (3) الا ان التجارة عن هذا الطريق كانت عبارة عن انتقال البضائع من قبيلة الى اخرى ضد احوال طبيعية صعبة وكانت ايضا متارجحة لعدم استقرار الاحوال السياسية ، ولذلك كان التحول الى الطريق البحري ايداناً بزيادة ملوحة في التبادل التجاري بين البلدين .

والدليل المؤتوق به على جلب البضائع برا من الهند نيلة (4) على مسلة (Shalmanassar) (858ق.م) ذكرت باسم غير معهود في الآشورية هو (Bazlati) عن السنسكريتية (Bactria) وبما ان الفيلة ذكرت الى جانب « الإبل من ذات السنامين » يتأكد لدينا انها نقلت بالطريق البري عبر الحدود الشمالية الغربية للهند (5).

ولا يأس بأن نقف قليلاً عند ذكر « الإبل من ذات السنامين » في القرن التاسع ق.م فنلاحظ أن من أشهر

(3) Wilson: The Persian Gulf, p. 28

(4) الفارسية « pil » السنسكريتية « pilu » الا ان بعض العلماء يذهبون الى ان هذه الكلمة ليست أصلية في Hobson-Jobson, (Supplement, « Elephant »)

Kennedy, J.; Early Commerce of Babylon with India. JRAS, 1897, p. 242-288 (5)

(6) المسالك والممالك من 231.

(7) احسن التقسيم من 482.

(7) احسن التقسيم من 482.

(8) انظر Dozy: Supplement

(9) سبط الالبي 351.

2 - العبرية (almug) (14) عن السنسكريتية والtamaliṣe (valgu) .

3 العبرية (Koph) القردة عن السنسكريتية (Kapi) [قارن المصرية القديمة]

4 - العبرية (thuki-im) عن التاميلية (tokei-togai) وعنها الفارسية والعربية « طاووس » .

هذا بالإضافة إلى الذهب والفضة والاحجار الثمينة التي تتالف منها قائمة البضائع المستوردة من الهند على ذلك العهد (15) .

ولا يخفى أن هذه الأدلة ، قليلة كما هي ، قد تناولها بعض العلماء بالتجريح والرفض (16) إلا انهم في الوقت نفسه أكدوا أن عدم توفر الدليل لا يعني وجود ما يمنع التجارة البحرية ، بل بالعكس امتاز الدراوريون (Dravidians) سكان جنوب الهند منقادين للهند على الملاحة .

ومنذ القرن السادس ق.م ينقشع الظلام وتتوفر لدينا الأدلة القاطعة على ازدهار التجارة البحرية ، منها :

1 - المثور على قطع من الساج (المرهيبة) (Sag) وغيرها من الأخشاب الهندية في قصر نبخت نصر (Nebuchadnezzar) (562 - 604 ق.م) وفي معبد الله القمر الذي جدد بناؤه بـ (Ur) .

2 - انتشار عدد كبير من البضائع الهندية في اليونان حيث كانت ترد عن طريق بابل ولا تسزال

اما العلاقات التجارية البحرية بين المنطقة الممتدة من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر وبين الهند فمن المطروح أنها راسخة في القدم إلا أن الأدلة فيما يتعلق بالفترة السابقة لسنة 700 ق.م ليست بكثيرة ، من أهمها :

1 - ورد في الكتابات التي ترجع إلى ما قبل 2000 ق.م أن الآكاديين كانوا يستوردون الأخشاب من (Magan) أي عمان ، ويرجح أن تلك الأخشاب أنها كان أهل عمان بدورهم يجلبونها من الساحل الغربي للهند (10) .

2 - كلمة (Sindhu) الواردة في مكتبة (Assurbanipal) (668 - 626 ق.م) أنها يرجع أصلها إلى الهند وهي تعني « القطن الهندي » ومنها الكلمة (Sadin) والعربية « سدين » (11) .

3 - الكلمة « Karpas » العبرية توافق السنسكريتية « Karpasa » .

4 - في القرن العاشر ق.م استعان سليمان ، جرياً على سياسة أبيه داود ، بالفينيقيين لتشييط حركة الملاحة والتجارة بين ميناء (Ezion Geber) العقبة (Abhira = Ophir) (12) وأعلى الساحل الغربي للهند (13) وتعد الكلمات الآتية من آثار هذه الحركة التي كانت ولا شك أقدم بكثير من عهد سليمان ، ولم يكن منه إلا أن جعلها مباشرة بعد أن كانت تجري على أيدي وسطاء كثيرين :

1 - العبرية « Shen Habbin » = « سن القبل » (العاج) عن السنسكريتية « ibha-danta » .

(10) انظر Wilson: The Persian Gulf, p. 27 ولعل Magan هي « مزون » بالعربية .

H. J. Rawlinson: Intercourse Between India and the Western World, Cambridge. 1926, p. 2-3 (11)

(12) لقد أمكن تحديد الموقع بتل الخليفة غربي العقبة على أثر الأعمال التي قامت بها بعثة أمريكية هناك أثناء 1938 - 40 م .

(13) اختلف كثيراً بشأن Ophir بعضهم قرأوا الكلمة Sophir « سوبارة » بالهند أيضاً أو « ظفار » بالبين أو « سفالة » الزنج ، إلا أن المرجح أنها كانت بالهند .

Cheyne : Ency. Biblica (14) نوع من الخشب الثمين ، الصندل الأحمر على الأرجح راجع Rawlinson, pp. 10-11 (15)

(16) في مقدمة هؤلاء الاستاذ J. Kennedy الذي مضت الإشارة إليه .

الالامع اليهم) قبل انهم اثاروا اعجاب اهل بابل بالغراب
تارة وبالطاووس تارة اخرى .

ولا يفوتنا في هذا المقام التنويه بان تجارة الهند
هذه كانت السبب الرئيسي في رخاء بابل وعظمتها التي
بلغت اوجها في هذا العصر حتى اثارت حسد فرعون
مصر (نحاو) (Necho) 612 – 596 ق.م) فما كان
منه الا ان بذل الكثير من الاموال والارواح في سبيل
اعادة بناء القناة الموصلة من النيل الى البحر الاحمر ،
تلك التي كان افتتحها لأول مرة (Sesostris)
في القرن العشرين ق.م .

١*/

وقد كان لهذه العلاقات ايضا اثر خالد في اربع
من اهم نواحي الحضارة في الهند :

١ - الخط البراهمي (Brahmi) ، الذي تفرعت
منه الخطوط الهندية المختلفة، ائما كان من اصل سامي
قوى الشبه بالحرف الفينيقي الى درجة تؤكد انه دخل
الهند عن طريق الساحل الغربي على ايدي التجار
الفينيقيين وقد حدد الدكتور بوهлер (Dr. Bühler)
تاريخ دخوله الهند سنة 800 ق.م ومع ان هذا
التحديد لا يزال موضع نقاش الا انه من البديهي ان
الخط لابد ان يكون قد مضى عليه قرون قبل ان
يتطور فيتعلم مع مقتضيات اللغات الهندية كما يبدو

اسماؤها اليونانية والغربية ترشدنا الى اصلها فمثلاً :
السنسكريتية (Chandan) = العربية (صندل) .

التاملية (Arisi) = العربية (الارز) (17) .

التاملية (Karppu) = العربية (قرفة) .

التاملية (Inchiver) = العربية (زنجبيل) .

التاملية (Pippali) = العربية (فلفل) .

السنسكريتية والتاملية (Vaidurya)

= العربية (بلور) .

السنسكريتية (Kirmi) = العربية (قرمز) .

فهذه هي بعض الكلمات الهندية الاصل التي
دخلت اللغة اليونانية عن طريق بابل في الفترة التي
نحن بصددها (19) .

وقد بحث العلماء عن التطورات التي أدت الى
نمو التجارة البحرية بين بابل والهند في القرنين
السابع والحادي عشر ق.م فوجدوا ان تلك الظاهرة توافق
تنكيل (Sennacherib) بالكلدانين واحتلال الفينيقيين
محلهم في سنة 694 ق.م لأن الكلدانين الذين سكنوا
« سيف البحر » (20) منذ القرن التاسع ق.م لم يكن
لهم من التفوق في الملاحة ما كان لاترائهم الفينيقيين
الذين جلبهم الملك الآشوري من أعلى دجلة والفرات
وعلى هذا يمكن القول بأن شجاعة الفينيقيين
وخبرتهم بأعمال الملاحة والتجارة التي اكتسبوها في
موطنهم الغربي هما اللذان تغلبنا على مخاوف البحر
الهندي (21) . ومن ناحية أخرى نجد في المصادر
الهندية الراجعة الى هذا العهد ولاسيما المجموعة
المسماة بـ « Baueru Jataka » قصصاً عن
التجار الهنود (أغلبهم من الدراوريين الذين مضى

(17) الرز والارز والرز لغات فيه (* الانجليزية « Rice ») وقد اتجه بعض العلماء اخيراً الى الاعتقاد
بان المركز الذي انتشر منه الارز في العالم هو التركستان ولذلك قالوا ان اصل الكلمة هو
« virinzi/virinza » بالفارسية القديمة = « briunj » بالفارسية الجديدة = « vrihi » بالسنسكريتية .

Sir George Watt: The Commercial Products of India: London, 1908, p. 824 etseq.

وليم ان كلمة اخرى بمعنیه « البهط » : الارز يطبع باللبن والسمن خاصة » هندية ايضاً كما جاء في
المخصص 3/5 واصله « bhata » .

(18) بالبراكريتية « Vailurya » بالبراكريتية « Beryl » انظر : Hobson-Jobson « Beryl »

Rawlinson, p. 14 (19)

(20) « الوارد ذكره في الكتابات المسماوية والممتد من مصب الفرات الى
البحرين (فارس نابه لابن البلخي تذكرجب، 1921 م ص 140) ويظهر ان العرب كانوا يعنون
بـ « السيف » هذا السيف الغربي للخليج الفارسي خاصة ، قال الاخفش بن شهاب :

لکن لھا البحران والسيف كلھ وان ياتھا باس من الهند کارب (المفضلية 41 / 9)

(21) راجع مقال Kennedy السالف الذكر .

في الكتابات التي يرجع عهدها إلى القرن الثالث ق.م وهي أقدم الكتابات التي عثر عليها في الهند (22).

2 - نظام منازل القمر المعهود عند الهنود (Nakshatras) إنما هو مأخوذ من بابل.

3 - يرجح الاستاذ كينيدي (Kennedy) أن الهندومنها اقتبسوا نظام التعامل بالعملة المعروفة بـ « Puranas » مما كان متبعاً عند أهل بابل (23) ولا يخفى أن (Puranas) أقدم عملة عرفت بالهند وقد استمر التعامل بها إلى عهد قريب ، ويرى كاتب هذا المقال إنها هي المعنية بـ « الفهرى » عند مسعود بن مهمل (24) و « التنهري » (تحقيق « الفهرى » أو « الفهري ») ، عند المنسى (25).

4 - يتبيّن بعض العلماء علاقة ما بين الأوزان الهندية القديمة وبين مثيلاتها عند أهل بابل مثل « المن » إذ أن أمرها مشكوك فيه جداً (26).

*/

في سنة 538 ق.م : امتدت سيطرة الفرس على بابل وغرب آسيا كلها وأمتاروا بالجمع بين مصر من جهة ووادي السند من جهة أخرى في جزءهم إلا أن هذه الميزة ، التي لا يمكن التقليل من أهميتها ، لم تستخدم ، كنتيجة للمنازعات السياسية ، لتسهيل التبادل بين المناطق الثلاث (البنجاب وبابل ومصر) التي كانت أهم مراكز التجارة الدولية ، ومن ثم يعتبر هذا العهد - عهد الأخمينيين (Achœmenians) الذي

(22)

كذلك الخط الخروشتي الذي انتشر في المناطق الشمالية الغربية للهند كان من أصل سامي آرامي .

(23)

راجع الجزء الثالث من مقاله الذي سبقت الاشارة إليه .

(24)

البلدان لياقوت « الصين » : « درهمهم (أهل كله) يزن ثلثي درهم ويعرف بالفهري » .

(25)

احسن التقسيم 482 — في نسخة « الفهري » وليعلم ان المنسى نفسه ينص على التقسيمات غير « القاهريات » أو « القندماريات » (كما عند ابن حوقل 228 والاصطخري 173) = كل درهم منها خمسة دراهم .

(26) Rawlinson, p. 15

(27)

لم تحول تجارة الهند من طريق الخليج الفارسي إلى طريق البحر الأحمر كان قد بدأ في مهد نبتخ نصر ويعمل ونسنت Vincent تخرّب ذلك الملك لمدينة صور بهذا السيف نفسه . انظر Wilson, p. 33 .

(*)

بحذاء هجر في الجنوب الغربي من مدينة الجليل تقع « العقير » وهي الآن ميناء صغير وعلى مقربة منها خرائب يعتقد العلماء أنها موضع (Gerrha) = جرهاء . (الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام 140/1) .

الروم واليونان كانوا يعتقدون طوال هذه المدة ان المنتجات الهندية التي كانت تنقل اليهم عن هذا الطريق كانت من منتجات اليمن المحلية (28) . ويجدر باللاحظة في هذا المقام ان الأخطار الشديدة التي كانت تتحقق بالللاحة في البحر الاحمر فوق عدن من عدم وجود موانيء صالحة وقلة الماء والقرصنة وما اليها كانت من اهم العوامل التي جعلت من الخط البري الطريق المفضل قرروا عديدة ، الا ان اليونانيين كانوا دائما يبذلون محاولات جدية للتغلب على تلك الصعاب من قاعدهم في مصر مما جعل اليونانيين يرتكبون تصرفاتهم ببطشة وحذر ، فمثلا لما عمد بطليموس الثاني (285 - 246 ق.م) ، الذي كانت سلطنته تمتد الى فينيقية وفلسطين ، الى اعادة فتح القناة التديمة بين النيل والسويس (Arsinoe) او لا وانشاء الطريقين الصحراوين من (Koptos) الى (Berenike) ومن (Koptos) الى (Myos Hormos) ثانيا احدث ذلك رد فعل قوي بين اليمنيين . على كل حال أقصى ما توصل اليه اليونان ، بعد هذه الجهود المضنية ، هو ابتعاد البضائع الهندية من حين الى آخر في الموانئ اليمنية ، خاصة (Mouza) ، ثم نقلها الى (Koptos) كما مر بدون ان ينسى لهم الاستفباء عن وساطة سبا ومن المعتقد ان النساء والكلاب والثيران والابقار والتوابيل الهندية المحملة على الجمال ، تلك التي ازدان بها الموكب التاريخي لبطليموس الثاني سنة 271 - 270 ق.م انما وصلت الى عاصمة مصر بعد اعادة شحنها في الموانئ اليمنية . نعم وقد برب في هذه الاونة ايضا اسم جزيرة سقطيرة (29) كسوق دولي هاجر اليها واستوطنها اليونانيون (30) للمشاركة في تجارة الهند والحبشة .

خلاصة القول ان تجارة الهند ما زالت تتحول من الخليج الفارسي الى البحر الاحمر منذ بداية عهد الفرس الاخميين ، بل وقبل ذلك منذ أيام بخت نصر الى ان أصبح الطريق الاخير هو الطريق الرئيسي في القرن الثاني ق.م وفي هذه الفترة بالذات اي منذ انتقال الكلدائين الى (Gerrha) بدا العرب سكان المناطق الساحلية الجنوبية الشرقية والجنوبية

وسرعان ما ابدى اهتمامه باعادة النشاط التجاري بين ساحل السند والخليج الفارسي فارسل بعثة استكشافية لهذا الغرض تحت قيادة (Nearhus) على غرار ما كان فعله دارا الاقبر من قبل الا ان موته حال دون القيام بأي عمل آخر في هذا الشأن . أما خلفاؤه الذين اقتنوا المملكة بينهم فقد شغلوا بالحروب الاهلية حتى ان السلوقيين (Seleucids) لم يكن بهم غير الحصول على الفيلة من الهند عن طريق ايران كما ان خصمهم في مصر بطليموس الثاني كان معنى بجلب ذلك الحيوان من الحبشة لاغراض حربية ولكن الى جانب ذلك نلاحظ ان العلاقات بين ملوك الهند من جهة وملوك الشام ومصر من جهة اخرى كانت في هذه الفترة اكثر توئتا من ذي قبل ، لا ادل على ذلك من وفسود (Megasthenes) و سفيروس (Dionysius) لسلوكس وبطليموس على الترتيب لدى بلاط جندر كبت موريا (Chandragupta Maurya) و مما يذكر من ملك الهند هذا انه اقام عددا من الوظيفين للاتصال بالجانب والشهر على راحتهم اثناء زياراتهم للهند ويستنتج من هذا كله ان التجارة بين الهند والخليج الفارسي لم تكن قد وقفت او هبطت الى درجة كبيرة ، ثم ساعدت الاحوال السائدة بارتفاع الخليج على تركيز هذه التجارة في ايدي اهل Gerrha الذين ربما كانت تتألف اغلبيتهم الان من العرب وفي نفس الوقت كان نشاط سبا في ازيداد مستمر وقد شاركهم في هذا النشاط النبطيون بارتفاع البحر الاحمر ، اولئك القوم الذين ما كانت عاصمتهم الرقى (Petra) لتنشأ شهرتها في التاريخ لولا انها وقعت موقعا هاما على خطى سير للتوافل من اليمن ومن العقبة (Aelana) ايضا .

*/

لقد انفسح مما سبق ان مصير سبا ورخاءها وحضارتها كانت مرتبطة ارتباطا تاما باستمرار تجارة الهند على الخط البري المحاذي لساحل البحر الاحمر الى اسوق الشام ، وفعلا نرى تجار سبا حريصين حرصا بالغا على الاحتفاظ بهذا الخط الى حد ان

(28) Hitti : Hist. of the Arabs, p. 48

(29) السنسكريتية « Dvipa Sukhatara » اي جزيرة السعاداء.

(30) يقول أبو زيد السيرافي ، سلسلة التواريخ ، باريس 1845 ، ص 133 - 134 ، ان الاسكندر هو الذي اهتم باسكن اليونانيين تلك الجزيرة تحقيقا لرغبة ارسطوطيليس في الاستيلاء على منابت الصبر بها .

الى (monsoon) لكتهم ، لسبب ما ، لم يكونوا قادرين على استخدامها ابان هباج البحر في فصل الصيف بالذات (32). مهما يكن من أمر فإن ما امتاز به اليونان كان كشفا عظيما ادى الى انقلاب خطير في طريق الملاحة والتجارة ويؤرخ هذا الكشف - كشف (Hippalus) — في سنة 45 م الا أن بين ايدينا ادلة على تغلغل اليونان وكثره تزدادهم على المناطق التجارية بالهند قبل ذلك، منها ايناد بعثة من قبل الملك (Pandion) بأقصى جنوب الهند (33) الى (Augustus) مصر في سنة 20 ق.م ، كذلك شهادة استрабو (Strabo) الصربي بأن 120 مركبا سارت الى الهند في سنة واحدة (25 ق.م) من ميناء (Myos Hormos) ، ثم لا يخفى ان حملة (Aulus Galus) على اليمن في عهد (Augustus) نفسه سنة 24 ق.م لم تكن الا حلقة في سلسلة الخطوات لانتزاع تجارة الهند من ايدي العرب (34) . وذلك بالتواطؤ مع النبطيين شركاء سبا الذين سبقت الاشارة اليهم ، لكن الحملة فشلت فشلا ذريعا وظل مركز العرب قويا وكان ناقوس الخطر قد دف والخراب يتسرّب الى اليمن رويدا رويدا .

وبمناسبة ذكر الملك (Pandion) لا يأس بأن تستطرد قليلا لنضرب مثلا للفائدة التي تعود على الادب العربي من الدراسات المقارنة فنقول ان مملكة (Pandy) بأقصى جنوب الهند قد اشتهرت من قديم الزمان بمعاصات اللؤلؤ الواقعة في المياه الضيقية بين ساحل الهند وجزيرة سيلان وجاء عنها في الاساطير الهندوكية ان الاله كريشنا (Krishna) جمع اللآلئ من احياء العالم وركزها في تلك المنطقة لتترى بها ابنته ملكة (Pandye) . لقد ذكر (Megasthenes) المغاصات والاسطورة المتعلقة بها (35) كما لم يغفل الاشادة بها احد من الزائرين لتلك المنطقة في جميع العصور من بينهم سليمان التجار (36) وماركو بولو (37)

يمارسون هذه التجارة ويستلون عليها أكثر حتى أصبحوا محتكرين لها يضعون على احتكارهم بالتوارد ولم يستطيع عملاؤهم اليونان ، مع شدة قلتهم ، احداث اي تغيير جوهري في الوضع حتى القرن الثاني ق.م.

*/

ولكن ما كاد القرن الثاني يقترب من النهاية حتى حدث ما كان في الواقع بداية لنهضة امر العرب وهو ان ملاحا هنديا غرق سفينته فوصل في قارب النجاة الى الساحل الغربي للبحر الاحمر حيث تولى الخبر تنقله الى الاسكندرية ، وبينما هو في تلك المدينة وقد اخذه الحنين الى الوطن اذ التقى بـ (Eudoxus of Cyzicus) الذي كان له باع في علم الجغرافيا ، ولم يمض وقت طويل حتى تواعد الاثنان وحصل على موافقة الملك (II Euergetes) ومساعدته للقيام برحلة الى الهند وقد تم ذلك فعلا ما بين 120 - 110 ق.م (31) فرجع الملاح الهندي الى الارض التي كان يسمع عنها اليونان ان بها « اشجارا تبت الصوف » و « احجارا تذوب في الفم ف تكون أحلى من التين ومن العسل » (القطن والنسر على حد تعبير Herodotus, Megasthenes على الترتيب) .

ولم تكن نتائج هذه الرحلة ، التي كانت الاولى من نوعها ، لتضيع على الملحقين اليونان فقد اتبعها يودوكسوس نفسه على الاقل برحالة اخرى وما من شك ان آخرين حذوا حذوه من حين لآخر لأننا نفاجأ قبل مضي فترة طويلة بسباق الملاح اليوناني ، المتمثل في (Hippalus) ، على العرب الى الاكتشاف عن طريقه استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في السفر الى الهند أيام الصيف . من المؤكد ان العرب لم يكونوا يجهلون الرياح الموسمية ، كفى دليلا على ذلك ان الكلمة العربية « موسمية » هي التي انتقلت وتطورت

(31) انظر : Rawlinson, p. 96-99

(32) سعيد القاريء بحثا قياما عن هذا الموضوع في : George Fadlo Hourani Arab Sea-faring in the Indian Ocean, Princeton, 1951, p. 25

(33) Pandya = « Pandion » « Porus » (Kadphises I) « بالمنطقة الشمالية الغربية انظر : Rawlinson, p. 108

(34) انظر : Hitti, p. 46

(35) Cam. Hist. of India

(36) سلسلة التواریخ من 120 .

معظمها كانت قد تحولت الى اليمن والبحر الاحمر . ومن الجدير باللحظة ان هؤلاء التجار الوسطاء على ساحل الخليج الفارسي استثروا في أعمالهم ونشاطهم طوال قرون عديدة بدون آية محاولة للتدخل من قبل السلوقيين اللهم الا ما كان من (Antiochus III) الذي أغار على (Gerrha) حوالي سنة 205 ق.م لكنه سرعان ما رضي بالرجوع قاتعا بالفتائم والهدايا من البضائع التي كان الاهالي يتجررون بها ولا يخفى ان السلوقيين كانت لهم تجارة واسعة بالهند عن طريق البر (ايران) وهكذا ظل الحال أيام البارثيين (Parthians) الذين استولوا على بابل والمدائن ما بين 140 و 130 ق.م فهم ايضا قصروا اهتمامهم على تجارة الهند (والصين ايضا) عن طريق البر فقط (42) وقد كانت تكتفي لندر عليهم ارباحا طائلة . على كل حال لم يحدث في منطقة الخليج الفارسي مثل ما حدث في منطقة البحر الاحمر من منافسة اليونان للعرب .

١*/

لم تكن دعائم الامبراطورية الرومانية تتوطد في سوريا وفي مصر تبليغ بدء التقويم المسيحي حتى نعمت البلاد بالاستقرار وتأمين السبل والقضاء على القرصنة مما ادى الى شدة الاقبال على سلع الكماليات المستوردة من الهند والصين في روما والاسكندرية والمدن الأخرى ، ولذلك يعتبر القرن الأول المسيحي ازهى عصور تجارة الهند بالغرب ، اما التطورات التي كانت قد حدثت في سير هذه التجارة بالنسبة الى العرب فتبينها بوضوح في مذكرة بحار يوناني مجهول كتبها حوالي سنة 80 م باسم (The Periplus of the Erythraean Sea) — تبين منها ان الملحقين الروم كانوا اذ ذاك يبحرون رأسا من قنا او من (Ocelis) الى (Cranganore = Muziris) بالجزء الاسفل من الساحل الغربي للهند وذلك في الحقيقة يمثل تقدما كبيرا على ما جرت عليه العرب

The Travels of Marco Polo, Broadway Travellers, London, 1931, pp. 292-293 (37)
The Periplus of the Erythraean انظر Tinnevelly Tamraparni على نهر

4/1 العقد الثمين ق (38) كتاب التشبيهات لابن أبي عون — تذكاركب — ص 97 .

(39) Wilson, p. 45 (41) Hourani, p. 14 (42)

لا انه كان بهذه المنطقة ميناء هام ربما سار اسمه مع الالى التي كانت تصدر منه وهو (Kolkai) (38) وبما ان مياه البحر انحسرت وابتعد الساحل من موقع هذا الميناء أثناء العصور القديمة نفسها اختفت الاشارة إليه فيما عدا المصادر اليونانية الراجمة الى الفترة التي نحن بصددها ، ثم مضت قرون فاجأنا على اثرها الشاعر العربي علقة يقوله :

حال كأجواز الجراد ولؤلؤ
من القلقى والكبس الملوب (39)

كذلك قول ابن الرومي ايضا :
يقت ذاك السواد عن يقق
من ثفرها كاللا القلق (40)

« القلقى » = الـ (Kolkai) لا غير . لكن انظر ما جاء عنه في اللسان « القلقى ضرب من الخل »، قال ابن سيده : ولا ادرى الى اي شيء نسب الا ان يكون منسوبا الى القلق الذي هو الانطراب كأنه يضطرب في سلكه ولا يثبت .. ! وفي بعض الاحيان الجات الحيرة النساخ الى التحريف : « القلعي » بدل « القلقى » — الا ان الامر لم يزل مغلقا .

لقد سبق أن رأينا ما كان لـ (Gerrha) من شأن كبير في التجارة الدولية ، بين لنسا (Eratosthanes) 276 — 194 ق.م كيف ان اهلها — ولاشك ان غالبيتهم كانت من العرب — كانوا يقومون بنقل انواع الطيب والبضائع الأخرى المجلوبة من جنوبى جزيرة العرب والخشنة الى بابل و (Seleucia) كانوا ينتلونها بالتوافق البرية وربما ايضا بالسفن التي كانت تصعد بدجلة الى (Seleucia) نفسها (41) وقد كان لهم نصيب من تجارة الهند ايضا مع ان

(37) The Travels of Marco Polo, Broadway Travellers, London, 1931, pp. 292-293
(38) على نهر Tamraparni باتلیم Sea (Schoff), 1912, p. 237

(39) العقد الثمين ق 4/1 كتاب التشبيهات لابن أبي عون — تذكاركب — ص 97 .

(40) Wilson, p. 45 (41) Hourani, p. 14 (42)

على كل حال بلغ استهلاك البضائع الشرقية ، ولاسيما أنواع الطيب ، ذروته في عهد نيرو (Nero) 68 م - فقد ذكر بيلنزي (Pilny) أن الملكة الرومانية كانت تتذبذب ما يقدر بـ ١٠٠ مليون و مائة ألف جنيه سنوياً ثمناً لمشترياتها من جزيرة العرب والمهد والصين وكان نصف هذا المبلغ تقريباً من نصيب الهند وحدها (48) . وقد اضطر الملوك الذين جاءوا من بعد إلى فرض بعض التقييد صوناً للمركز المالي إلا أن حركة الاستيراد ما زالت قوية حتى كان عهد طراجن (Trajan) 98 - 117 م - الذي سعى لتضييق الخناق على العرب وذلك بإعادة فتح القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر . (وكانت قد أنسدت منذ عهد بطليموس الثاني) و توصيلها إلى بابل مصر ثم بضم أقليم النبطيين ، الذين كانوا قد ساعدوا (Aulius Galus) ضد اليمنيين ، إلى مملكته و إنشاء طريق رئيسي من المبة إلى دمشق وأخيراً بانتزاعه جميع الأراضي الممتدة إلى من أيدي البارتنيين . لاشك أن فكرة السيطرة على هذين المنطعين كانت فكرة سلبية جريئة لأنهما كانا على اتصال بحرى شرقاً بالهند وقد اتفق لطراجن نفسه حينما كان واقفاً على رصيف Charax أن رأى سفينة تتأهب للالقاطع إلى الهند فأسف على أنه لم يكن في وسعه التقدم إلى تلك البلاد لكبره وكانت تمتد أيضاً من المنطعين خطوط تجارية غرباً إلى موانئ الشام وعلى ذلك فقد أراد طراجن أن يتم له الجمع بين منطقتي الخليج الفارسي والبحر الأحمر تحت سيطرته وتلك ميزة لم تتبادر من قبل لغير دارا الكبير والاسكندر وكان يرجى أن تكون مثل هذه الخطوة آثاراً بعيدة لو لا أن البارتنيين سرعان ما أستردوا ما كانوا قد نقدوه فاقتصرت النتيجة على أن بُرِزَ اسم مدينة (Palmyra) تدمر كخلف للرقم التي خربها طراجن سنة 105 م وقد نال هذا المركز التجاري الجديد قسطاً وافراً من الإزدهار لأن الفريقين رأياً متنصلحةما عدم التعرض له حتى بقي أهله يتجررون

من السير بمحاذاة الساحل إلى «منطقة البواريز» (43) أي كجرات (Gujarat) وربما انحدروا من هناك إلى ساحل المليبار أيضاً - الا أن الروم ، على الرغم من تقوتهم هذا ، كانوا لا يزالون بعيدين من القضاء على تنوز العرب القديم في الأسواق الهندية ، يذكر أن الروم لم يكونوا يستطيعون الحصول على القرفة (اللحاء) إلا في رأس (Guadrafui) لأنها كانت تحجب عنهم في الأسواق الأصلية بينما كان ورق تلك الشجرة شجرة القرفة نفسها ، معروضاً عليهم في المليبار حتى اشتهر بهم باسم (Malabathrum) (44) وهذا أطرف مثال للأواصر الوطيدة بين المدررين من التجار الهندوس والوسطاء العرب ضد عمالتهم الروم .

لكن لا يظن أن الاختلاف بين الشريكين التقديرين كان كثيراً بمقاومة تغلغل الدخيل الجديد الذي اقتحم الميدان مسلحاً بالتفوق في طرق الملاحة نان المصدر نفسه أعني (Periplus) يحدثنا أيضاً عن الولادة بين الروم وبين حمير ملوك ظفار الذين كانوا قد حلوا محل سياً منذ حوالي 115 ق.م ، وذلك شاهد على أن العرب وإن لم يكونوا قد تركوا الميدان إلا أنهم كانوا قد بدأوا يهادنون خصومهم وهل ذلك إلا كنتيجة للضعف والوهن ؟

وما زاد الطين بلة ظهور منافس جديد للعرب في تجارة الهند . لا يخفى أن الهندوس كانت لهم علاقات تجارية قديمة جداً بساحل الصومال والحبشة ، لا أدل على ذلك من أن المصادر الهندوسية تحتوي على اقدم الاشارات إلى « رجال التمر » و « جبال القرم » (45) ، ثم أن العرب ، وإن لم يرحبوا بالتجار الهندوس في الموانئ اليمنية ، كانوا قد امسكوا عن مراحتهم في منطقة شرق أفريقيا (46) حتى أصبحت ملتقى للتجار الهندوس والعرب واليونان والروم أيضاً وقد ظلت على حالها هذه إلى أن بدأ الخبيثيون يتطلعون في الفترة التي نحن بصددها إلى نصيب أكبر لأنفسهم من تجارة الهند وسرعان ما راحوا ينشدون تحالفًا مع الروم ضد العرب لهذا الغرض (47) وهكذا أصبحوا عاملًا جديداً كان له شأن يذكر فيما بعد .

(43) هكذا يسمى أبو النداء : التقويم (باريس) ص 358.

(44) Periplus ص 4

(45) المصدر نفسه ص 87 نقل عن Speke : Discovery of the Source of the Nile

(46) المصدر نفسه ص 3

(47) Hitti ص 59

(48) Rawlinson ص 103

اشتد ايضاً في الوقت نفسه مركز الاختباش حتى
امسحوا المنازع الوحيد للفرس في تجارة الهند :

انتقل زمام الحكم من البارثين إلى الساسانيين
في سنة 225 م ومن أهم ما امتاز به الساسانيون
اهتمامهم بتشجيع الملاحة عند الفرس — الناحية التي
لم يلتفت إليها أسلافهم قط ، يتجلّى هذا الاهتمام فيما
قام به أول ملوك الأسرة الجديدة ، ارديشير الأول
(225 - 241 م) من إنشاء الموانئ وما إليها . وفي
مطلع القرن الرابع نسمع عن حملة العرب سكان
الساحل الغربي على الفرس بالساحل الآخر عبر
الخليج الناري ثم عن انتقام سابور الثاني من
العرب بعد ذلك بزمنٍ قليلٍ مما يدل على تقدم الملاحة
واحتياز العنصرين دوراً من الزيز والصهر في بوتقة
واحدة . وفي هذه الائتماء زالت روما وخلفتها قسطنطينية
سنة 330 م كما أن حمير استكملت سيادتها على الجزء
الجنوبي من جزيرة العرب حتى أصبح التابع « ملك
سبأ وحضرموت ويبنات ونهامة » لكن حمير كانت
الآن مهددة تماماً من قبل الحبشيين الذين كان يجري
في عروقهم دم المهاجرين من اليهود نفسها وفعلاً بدأ
ملوك كسمو (Axum) يتحرشون بسكان الساحل
الشرقي للبحر الأحمر منذ أواخر القرن الثالث حتى
نجحوا في النصف الأول من القرن الرابع في اخضاع
حمير لسيادتهم ، ومع أن سيادتهم لم تدم إلا ببرهة
قصيرة استأنفت حمير بعدهما استقلالهما إلا أن
الحبشيين بقوا عملاً يعتمد به في كل ما يتعلق بالتجارة
والسياسة في البحر الأحمر .

لقد مررتنا سريعاً بالقرن الثالث والرابع
والخامس لفترة المصادر عنها غير أن الوقائع التي
سردناها تعطينا فكرة عن التغيرات الأخيرة في النمو
والاشتراك وما ان نصل إلى القرن السادس حتى نرى
نتائجها واضحة مستكلمة وهي تتلخص في استيلاء
الحبشيين مرة أخرى على حمير سنة 525 م ، ومما
يسترعي الانتباه أن ذاتواس لم يكن يملك أسطولاً ولم
يظهر أية مقاومة إلا بعد وصول المهاجمين إلى البر ،
ثم جاءت النهاية الكارثية للخراب الذي كان يتسرّب

في كلتا الملكتين المتخالفتين وينقلون البضائع بينهما
وذلك إلى سنة 273 م — الوقت الذي رأى فيه الروم
أن الفرصة قد سُنحت للاستيلاء على تدمر كما كانت
قد استولت على الرقim من قبل .

يتجلّى لنا في جغرافية بطليموس (حوالي 150 - 160 م) مدى التقدّم الذي كان قد أحرزه التجار
الروم في الاستيلاء على التجارة الشرقية وذلك طبعاً
على حساب نفوذ العرب ومصالحهم فقد كانوا عرفوا
خليج البنغال بما فيه مصب نهر الكنك (Ganges)
و « بلاد الذهب » (جنوبي ملايو) كما أن واحداً
منهم على الأقل يسمى الاسكندر كان قد زار طونكتنج
(Tong King) ، كذلك وصل وفد منهم في سنة 166 م
إلى عاصمة الصين ليشكّوا من احتكار الإيرانيين لتجارة
الحرير ويعرض اثناء علاقات مباشرة عن طريق
الهند (49) ومن جهة أخرى تبيّننا المصادر الهندية
التamilية (Tamil) عن وجود جاليات للروم في جنوب
الهند وانخراطهم في خدمة الامراء الهنود (50) كما أن
ظهور التجار الهنود في أسواق الإسكندرية — الأمر
الذي يشهد به Dio Chrysostom على عهد طراجن (51)
بعد دليلًا على نمو العلاقات التجارية المباشرة بين
الروم والهند .

وهكذا استمرت هذه الحركة قوية طوال القرون
الثانية والثالثة بينما أصبحت العرب غير ذات شأن
إلى أن حدثت تطورات سياسية جديدة وساعدت
احوال روما الاقتصادية وانخفضت قيمة عملتها التي
كان يتمتع بها كل من العرب والهنود فكانت النتيجة
أن ركّدت التجارة وتضاءلت إلى أدنى حد بدليل أنه لم
يُعثر في الهند على العملة الرومانية الراجمة إلى ما
بعد 211 م الا قليل النادر (52) .

*/

لقد رأينا آنفاً كيف أن العرب غلبت على تجارة
الهند ولكن القضاء لم يمهل الروم طويلاً ليجيّدوا من
ثمرات نصرهم فسرى كيف أن الفرس حلوا محل
العرب والروم جميعاً أثناء التراثون التالية ، نعم وقد

(49) انظر Hirth: China & the Roman Orient, 1885

(50) Rawlinson ص 121

(51) المصدر نفسه ص 140

(52) المصدر نفسه ص 151

لم ينجحوا في ذلك لما كان يتمتع به الفرس من التفؤذ وحسن ادارة الامور في اسوق سيلان والهند. ولم يقتصر نفوذ الفرس عند هذا الحد بل تعداه الى انشاء مراكز لهم في سقطرة وفي (Adulis) نفسها واخيراً نراهم يطردون الحبشيين من اليمن وينتزعونها لانفسهم حوالي 570 م .

هكذا تمت للفرس السيطرة على جميع المياه الواقعة بين سيلان من جهة وساحل شرق افريقيا من جهة اخرى ، وكان من الطبيعي ان يصبح الخليج الفارسي الطريق الرئيسي لتجارة الهند في عهدهم ، كما كان البحر الاحمر ابان نبوغ الروم من قبل . ونجد هذه الاحوال منعكسة على الشعر الجاهلي العربي والروايات التي وصلتنا عن ذلك العهد : اهل ادل على الاتصال الوثيق المستمر بين الهند والخليج الفارسي من ان الآلة كانت تعرف بـ « فرج الهند » (55) كذلك يرجح ان « عدولية » في قول طرفة :

عدولية او من سفين ابن يامن (56)
يجور بها الملاح طوراً ويمتدى

هي السفينة النسوية الى (Adulis) مما يدل على الاتصال بينهما وبين الخليج الفارسي . يقى ان نتسائل : ماذا كان نصيب العرب من الملاحة والتجارة في هذا العهد ؟ يبدو انه لم يكن لهم صفة مستقلة ، انما كان اهالى عمان وما حوالها

الي اليمن منذ قرون بشكل انتقامي سد مأرب ما بين 542 – 570 (53) أما الفرس فكانت مكانتهم عالية ممتازة جداً ، كانوا قد اكتسحوا الروم من الموانئ الهندية وكانتوا كما يشهد به (Procopius) و (Cosmos) يتسلمون الحرير الوارد عن طريق البحر من « الصين » (Sinae) الساحلية في سيلان بينما كانوا هم أنفسهم مسيطرین على الخطوط البرية المولدة عبر وسط آسيا الى (Seres) مصدر « السرق » (54) اي الصين الشمالية . ملخصة القول انه لم يكن احد ينذر من الحصار المفروض من قبل الفرس على الموانئ الهندية الا الحبشيون الذين كثيراً ما ترددوا بپيائهم ، ولا سيما العاج ، على سيلان والساحل الغربي للهند حتى على موانئ الفرس انفسهم وكانت (Hallia Adulis) (Massawa) ميناء الحبشية الرئيسي (وقاعدة المجموع على اليمن) ، في هذا الوقت مركزاً تجارياً هاماً لأن الروم كانوا قد اضطروا الى قصر نشاطهم على الاتصال بهما والحصول على طلباتهم منها ولم يكونوا يستطيعون التجاوز عن باب المندب الا تليلاً ، وهل ادل على تخرج موقف الروم وعجزهم من انهم تو ما سمعوا عن استيلاء الحبشيين على اليمن بعثوا بعيد 531 م بسفارة من قبل الامبراطور (Justinian) الى اكسوم يطلبون من الحبشيين ان يحاولوا شراء الحرير راساً من الهند وبيعه لهم (الروم) لكن توفر الاموال التي كان الروم مضطرين الى دفعها لاعدائهم الفرس ، وفعلاً حاول الحبشيون العمل بهذا الاقتراح الا انهم

(53) المهم ان انتقامي سد مأرب كان نتيجة لا سبباً لخراب اليمن وتشتت سبا . انظر Hitti ص 65
(54) ظل العالم العربي يجهل حقبة طويلة ان (Sinae) التي كان الوصول اليها عن طريق البحر و (Seres) التي كان الوصول اليها عن طريق البر ابداً كانتا تمثلان جزئين لبلد واحد ، كما ان سكانهما كانوا من شعب واحد ، وتمثل كلمة « السرق » بالانجليزية (Silk) وبالمربيبة (سرق) بالحرير الوارد من طريق البر اي ايران (sirkek) والاصل بالمنغولية (ssi) والصينية (Aisi) . انظر (Periplus) ص 266 .

(55) تاريخ الطبرى (لدين 12 / 2021 ، انظر ايضاً 2023 حيث جاء : « كان فرج الهند اعظم فرروج فارس شأنها وأشدها شوكة وكان صاحبه يحارب العرب في البر والهند في البحر »
(56) ورد ذكر ابن يامن في بيت لامرء القيس ايضاً :

او المكرعات من نخل ابن يامن دوين الصفا اللائي يلين المشقر المشقر : قصر بالبحرين (البلدان لياقوت) . يرجح الدكتور سليمان التدوى انه كان تاجراً عربياً يعودياً هناك (عربون كي جهاز راني من 26) .

(57) انظر (Hourani) ص 42 . أما اللغويون فنجد اقوالهم متناقضة مما ينم على نوع من التخيط : عن الاصمعي عدولى قرية بالبحرين ، وتقبل موضع يسمى عدولاة ، وعن ابن الكلبى : عدولى ليسو من ربعة ولا مفرد ولا من يعرف من اليمن انما هم امة على حدة (كذا في المسان « عدل ») .

قد اخطلوا اختلاطاً كبيراً بغير أنهم الفرس ، وكان من الطبيعي أن يشار إلى أعمالهم مما أكبهم دراماً وخيبة . أو لا نرى إلى أزيد من عمان وهو يحتقرون لكونهم « مزونين » وملحين كما أن كبراءهم ربما نسبوا في معرض الهجو إلى أصل فارسي (58) . أما الصور الرائعة لمناظر البحر وأهواله وسير السفن فيه التي يذكر بها ديوان العرب ، فلا يصح أن تتخذ دليلاً على مزاولة العرب للملاحة أو اهتمامهم بها ولا سيما إذا كان هناك ما يؤكد استعجمائهم لها ، إنما كانت تلك الصور كليشيات نقلت إلى داخل الجزيرة من المناطق الملاحية (59) .

*/

عهد الساسانيين وما زاد في نشاط هذه الناحية زيادة لممولة انتقال عاصمة الخلافة ومركز الحضارة إلى بغداد ولعل قول مستشار المنصور الذي يسط فيه مزايا الموقع الجغرافي لتلك المدينة يقوم أوضاع دليل على أهمية العلاقات التجارية التي نحن بمددها ، قال دهقان بغداد للمنصور : « ... تحمل البك طرائف الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة ... » (60) .

يصدق هذا القول ما أورده الرحاليون والجغرافيون أمثال سليمان التاجر (237 هـ) وابن خردانبه (232 هـ) والمسعودي (332 هـ) والقدسى (375 هـ) بشأن ازدهار التجارة وال عمران في الإبلة وسيراف والبصرة ، لقد كانت المراكب تتطلع من هذه الموانئ إلى مسقط ومن هناك رأساً إلى كولم ملى (Quilon)

جنوب الهند حيث كانت تفترق الطرق فاما إلى ساحل الدكن (جنوب الهند) الشرقي وأما إلى سردينب (جزيره سيلان) وكله Kedah بملابو) على الطريق إلى الصين ، هذا فضلاً عن حركة التجارة المتصلة بالموانئ القائمة على الساحل الغربي للهند فوق كولم ومن أشهرها الدليل على مصب نهر السند وكتابات ببروص (Broach) الحالية) بكرارات واته وصيمور (Chimur) وسوباره (Churparaka = Sopara)

بإقليم يومباي ولقد مررت مدی توقيع العلاقات بين المصدرين الهندوس وزيلقائهم يقول سليمان عن ملوك الككم (Konkon) إنهم « يعمرون ربما ملك أحدهم خمسين سنة وتزعم اهل مملكة بلهرا (Rashtrakutas = Vallabhai) » إنما يطول مدة ملوكهم وأعمارهم في الملك لمحتبس للعرب وليس في الملوك أشد حباً للعرب منه وكذلك أهل مملكته (61) لم لا والرخاء الاقتصادي في البلاد كان يتوقف على تصريف المنتجات في أسواق العرب ؟

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن انتشار الإسلام إلى الجانب الشرقي للخليج الفارسي ساعد كثيراً على تكوين شعب واحد من الفرس والعرب سكان السواحل في تلك المنطقة وتد كانوا اخطلوا

على ضوء ما سردناه آننا من الأوضاع السائدة في القرن السادس نستطيع أن نفهم جيداً بعض الحوادث التي وقعت في أوائل العهد الإسلامي ، فمثلاً حملة أهل عمان البحري على نارس وحتى سواحل السند وكجرات بدون سابق اذن من الخليفة الثاني عمر آنما تدل على العزة التقديمة والتحميس الجديد لآيات استقلالهم عن الفرس الذين كانوا متغروقين عليهم من قبل ، كذلك نرى كيف أن عمر الذي كان حذراً خائفاً من « حمل الدود على العود » اضطر إلى السماح بحملة (Adulis) لأشعار الجيشين بانتهاء سيطرتهم السابقة على المياه المجاورة ثم توسيع الفتوح الإسلامية حتى شملت مصر من جهة والسودان من جهة أخرى فكانت النتيجة أن أصبح طريقاً الخليج الفارسي والبحر الأحمر تحت سلطة واحدة وتلك غاية طالما تاقت الحكومات المختلفة إلى تحقيقها ولم تتحقق إلى إزالة الحدود بين العراق وسوريا كما قد رأينا من قبل وتبعد هذا التطور الجديد أن ارتفع التناقض والتتسابق بين المنقطتين ورجع نشاط كل منها إلى ما كانت تقتضيه طبيعة العمran والاستهلاك المحلي ، وبما أن خط الخليج الفارسي كان أكثر استقامه وأقرب مسافة وأونق اتصالاً وأن التجار لم يلجأوا إلى البحر الأحمر إلا للضرورة ، لذلك استمر هو الأول الطريق المفضل لتجارة الهند كما كان منذ

(58) المهلب بن أبي صفرة مثلاً .

(59) انظر دائرة المعارف الإسلامية « السفينة » .

(60) البلدان لياقوت (ط أوريا) 1/ 681 .

(61) سلسلة التوارييخ من 27 .

يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجارتهم السى القسطنطينية بباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فبيعونها هناك ، وان شاعوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرون بالطاكية وسيرون على الأرض ثلث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ، ثم يركبون في دجلة إلى الإبلة ومن الإبلة إلى عمان والسندي والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض (63) .

ثم يحدثنا ابن خردانبه عن التجار الروس الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه :

« هم جنس من الصقالبة فائهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الروسي فيعشرهم صاحب الروم وان صاروا في تتبیس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون إلى بحر جرجان ... وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الأبل إلى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فرئون الجزية ، فاما مسلكم في البر من الخارج منهم يخرج من الاندلس او من فرنجة فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى أفريقية ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى خارس ثم إلى كرمان ثم إلى السندي ثم إلى الهند ثم إلى الصين (64) .

اما البضائع والمنتجات التي عرفت الهند بها بين العرب فقد أشار إليها بالأجمال أيوب بن القرية (من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث) حينما ساله الحاج عن الهند فأجاب بقوله : « بعمرها در وجلها ياقوت وشجرها عطر » (65) - وقد عرض لها بالتفصيل أبو زيد السيرافي حيث قال :

« بحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر ، وفي جباله الجوهر ومعادن الذهب ، وفي أنواع دوابه العاج ، وفي منابته الابنوس والبقرن والخيزان وشجر العود والكافور والجوزيا والقرنفل والصندر وسائر الأفواه الطيبة الذكية وطيوره الغافى (يعنى البيباءات والطاوايس) وخرشات

وامتزجو الى حد كبير في العصر السابق ، ولذلك تراهم في العصر الإسلامي يشتراكون في أعمال الملاحة والتجارة اشتراكهم في استعمال اللغة العربية كتابة وخطابة مما يجعل من الصير التمييز بين المنصرين ، الا ان نظرة واحدة على اسماء النواخذة الوارد ذكرهم في كتاب عجائب الهند لبزرك بن شهريار (62) تكتفي للتدليل على وجود العنصر الفارسي بل وعلى غلبة ايضا .

اما مقدار التجارة عن طريق البحر الأحمر فكان وقتا لحاجة مصر لا غير وللسهيب نفسه يرجح انه زاد كلما ارتفع شأن مصر على اثر اتحاد الدولة العباسية لاشك ان عمر كان قد جدد فتح القناة القديمة بين النيل والقلزم الا انه لم يكن يستهدف من ورائه غير نقل الميرة الى الجار ميناء المدينة .

وأخيرا يجب التنبيه على ان ظهور الاسلام وان ادى الى قيام دولة واحدة تشرف على طريقى الخليج الفارسي والبحر الأحمر الا انه في الوقت نفسه سبب القطيعة بين الدولة الجديدة وبيزنطة ، تلك القطيعة التي استمرت طوال القرون المتعاقبة بحيث لم تكن تسمح لتجار احدى الدولتين بالاطمئنان الى انشاء صلات مستدية مع الدولة الأخرى فكانت النتيجة ان انحصرت مهمة نقل البضائع بين دار الاسلام وببلاد المسيحية في ايدي اليهود الذين يتحدث عنهم ابن خردانبه بقوله :

« يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والانجليزية والاندلسية والصقلية وانهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجبواري والفلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرون بالفرما (Pelusium) ويعملون بتجارتهم على الظهور الى القلزم ... ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجدة ، ثم يمضون الى السندي والهند والصين فيحملون المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ، ثم

(62) Leide, 1883-86

(63) المسالك والممالك 153 - 154 .

(64) المسالك والممالك 153 - 155 .

(65) الاخبار الطوال للدينوري ص 326 .

أرضه الزباد وظباء المسك وما يحصيه حدد لكترة
خирه » (66) .

هذا وقد جمع أحد من الشعراء الموالي اسمه
أبو الشمع أكد في معجم المرز باتي 513 وفي
الفهرس 174 « أبو الصلع ») السندي كل ما
امتازت الهند به من وفرة الانتاج وأشتهرت به من
جودة المنتجات في أبيات رائعة في معرض المدح
والافتخار ، قال :

لقد انكر أصحابي : وما ذلك بالأمثل
إذا ما مدح الهند وسمم الهند في المقتول
لعمري أنها ارض اذا قطر بها ينزل
يسير الدر والبياتوت والدر لمن يعطيل

الآثار للتزويوني ص 85 وانظر الحيوان 50/7) .

الألفاظ الهندية العربية

بعد . وعلى هذا فالتأكد من كون الهند الموطن الأول
لبعضه من البضائع إذا افترضنا بثبوت استيراد العرب
لتلك البضاعة منها (الهند) ينبع دليلا قويا : بل
فاطلعا . في كثير من الأحوال ، على أن الاسم هندي
الاصل كالبضاعة ذاتها . فمن الإماثة المتفق عليها من
هذا القبيل الموز والكافور والقرنفل والصنبل والساج
ونلسك والليمون والنارجيل وأسماء عدد من العقاقير
كالاطريل وجميع أصناف التوابل تقريبا كاللفلف ،
وسرى أنها لو سرنا على هذه القاعدة لكان في
وسمعنا أن نلقى بعض الضوء على أصول عدد من
الكلمات التي لا يزال يكتنفها شيء من انغماس .

ولا يخفى أن لبحثنا هذا جانب آخر على درجة
كبيرة من الأهمية وهو أن معظم تلك الكلمات التي
يقل عنها أنها عربية دخلة في اللغات الأوربية ،
ولاسيما الإسبانية والفرنسية والإنجليزية ، هي في
الاصل معربة عن الهندية واللغات المحلية لمناطق أخرى
شرقي الهند ، وذلك لأن تلك الكلمات إنما شقت
طريقها إلى أوروبا عن طريق التجارة على أيدي
العرب ، ولكن العرب لم يكونوا منتجين في أي
من حقول الزراعة والصناعة لا شيء إلا لأن الطبيعة
حرمتهم من الثروة النباتية والمعدنية . اذن فكان

أن العلاقات التجارية بين الهند والعرب راسخة
في القدم تمثل في الأسماء الهندية المعربة أكثر منها
في إشارات أو روايات في بطون المجاميع الأدبية
والتاريخية أو المؤلفات الجغرافية ، وقد استحضرت
في ذهني عددا من المفردات المتعلقة بالتجارة وما
اليها اتوسمها لعلها قد بقي فيها بعد طول اغترابها
ما يمكننا من ردها إلى أصلها الهندي المتيق ،
وأقدم فيما يلي بعض النتائج التي وصلت إليها بشأن
اصل طائفة من الألفاظ العربية ، والتي ربما اعتبر
بعضها عربيا محضا .

ويهمني أن أنه في هذا المقام بظاهرة ربما
يكفل ابرازها القضاء سلفا على أي استغراب يلحق
الماريء فيما بعد ، وهي أن العرب الأول الذين
نراهم عبر التاريخ يغامرون بحياتهم في لجج البحر
الهندي إنما دابوا على ذلك ليجلبوا من الهند وما وراء
الهندي لا البشائع فحسب بل أسماءها المحلية أيضا
كما سمعوها من أنفوا الذين اختلطوا بهم وعاملوهم ،
 وسيبدو ذلك طبيعيا إذا نحن قدرنا أن معظم تلك
البضائع هي التي لم يعرفها العرب في أوطانهم وغير
أوطانهم من قبل ، بل إنما عرفوها لأول مرة في
الهندي ثم عرفها العالم الغربي عن طريق العرب فيما

الاقدار حتمت عليهم ان يقوموا بدور الوسيط في جلب البضائع الهندية والصينية وتوسيعها الى اوروبا الى ان قدر لاوروبا الاتصال مباشرة بالشرق الاقصى في اواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو لعمري دور لعبه العرب لا بجراة وكفاءة فحسب بل بامانة تركت اطيب الاشر وأعمقه في نفوس السكان غير المسلمين لمناطق الهند الساحلية. بهذه الظروف تقرر علينا . كلما وجدنا في اللغات الاوروبية كلمة تتعلق بالملاحة (67) او التجارة على ايدي العرب في المحيط الهندي ، ان نواصل البحث عن اصلها الهندي بعد ان نهدي الى شكلها العرب في العربية ، ولعل في مقارنة الطرفين الاروبي والهندي ما يكشف لنا بعض ما غمض على المتأخرین من العرب انفسهم في بعض الاحيان .

فمثلاً كلمة (Almanac) لم يشك احد في أنها انتقلت الى اوروبا عن العرب لكن حار الباحثون في الاهتداء الى اصلها فقالوا انه « المناخ » (المحيط - ن و خ) او ان العرب الاندلسيين استعاروا كلمة **بـAبـIخـIأـ3ـWـZ** (68) من

(67) لقد صرخ المسعودي : فيما يتعلق بالملاحة ، ان العرب حرصوا على الاخذ بالالفاظ المحلية في مختلف المناطق التي ترددوا عليها ، انظر الى قوله : « انما تعبر بلغة اهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم فيما يتعارفونه بينهم » المروج 332/1 (ايضاً 343) . « انما نخبر عن عبارة كل بحر وما يستعملونه في خطابهم » .

ويلاحظ ايضاً في هذا الصدد ان العرب لم يأخذوا الكلمات الهندية من اللغة السنسكريتية الفصيحة ، ولاهم اعنوا باشكالها الصحيحة في الكتابة ، بل انما أخذوها من افواه التجار وسكان المناطق الساحلية التي كانوا يتربدون عليها ، ولا يخفى ان تلك المناطق كانت ولا تزال تسودها لهجات متعددة بل لغات مستقلة .

Hob.-Job. - « Almanack » (68)

76 - 88 « رهمناج » - 60 ص Ferrand : Instructions Natiques, Tome I (69)

« رهمنجا » .

واللبس مثل الذى نشاهد فى اول هذه الكلمة كثير شائع فيما يتعلق بالكلمات الاعجمية التي فى اولها حروف تقارب الالف واللام . فكلمة « انجر » (Anchor) مثلاً اصلها بالفارسية « لنكر » (القاموس - نجر) ، اضاف العرب عليها الالف واللام (ال لنكر) ، ثم التبس عليهم الامر فظنوا ان اللام ليس من الحروف الاصيلية (اللنكر) وقالوا « انجر » - وكذلك الرصاص من « اوزير » (انظر ادى شير) ، والماس من « Adamas » (Adams) Periplus ص 224 وانظر بزرك ص 128 « الادماس ») بتمامه كلمة غير عربية والالف واللام من بنية الكلمة ، كذا فى شفاء الغليل واللسان (ماس) عن ابن الاثير - وسيأتي الاتك من « Ranga »

يلاحظ ايضاً انهم كثروا ما يحذفون الكاف والميم من الاول فى التعریب ، انظر مثلاً الرند = كرندة و « انباتي » نسبة الى كبات و « انجاني » نسبة الى « منتج » واترج / ترنج تعریب « ما تلنغا » - وكذلك الواو يسقط من الاول مثل « النع » من « valgu » وارز من « virizi » Watt ص 707 (70)

وقد ذهب الباحثون الى ان « كله » توازي « Kedah او « Kra » الحالية (75).

ويلاحظ ان اهم ما اشتهرت به سيف الهند جودة الصقل ، وهو عمل لا يتأتى الا بالانك الذى استأثرت القلعة بانتاجه ، أما الحديد اللازم لصناعتها فقد اورد الادرسي بشانه ما يلى :

« ان بلاد سفاله (سفاله الزنج اي شرق افريقيا) يوجد فى جبالها معدن الحديد الجيد الكثيرة ، واهل الرانج (الزانج ؟) وغيرهم من ساكنى الجزائر الطيفية لهم يدخلون اليهم ويخرجونه من عندهم الى سائر بلاد السندي وجزائره فيبيعونه بالثمن الجيد ، لأن بلاد السندي اكثر تضرفهم وتجارتهم بالحديد ، ومع ذلك وان كان الحديد موجودا فى بلاد الهند ومعادنه بها ففى بلاد سفاله هو اكثر واطيب وارطب ، لكن الهنديين يحسنون صنعته وتركيب اخلاق الادوية التى يسبكون بها الحديد الذين فيعود هنديا منسوبا الى الهند ، وبها ديار الضرب للسيوف وصناعتهم يجيدونها فضلا عن غيرهم من الامم ، وكذلك الحديد السبتي (كذا وفي نسخة اخرى: السندي) والسرنديبي والبينمانى كلها تتفاضل بحسب هواء المكان وجودة الصنعة واحكام السبك والفراب وحسن الصقل والجلاء ، ولا يوجد شيء من الحديد أمشى من الحديد الهندي ، وهذا شيء مشهور لا يقدر احد على انكار فضيلته » (76).

هذا وقد كانت البيامان (البيمنان) مركزا آخر هاما لصناعة السيوف تنسب اليه السيوف البيلمانية ، وكانت تقع على ملتقى حدود السندي والهندي كما يتضح مما ورد في شأنها في فتوح البدان للبلاذري ص 440 و 442 ، أما القول بأنه « يشبه ان يكون (البيمنان) من ارض اليمن » (انظر البدان لياقوت وقاموس « ب ل م ») فلا يقوم على سندي .

وبها قلعة يضرب بها السيف القلعية . وهي الهندية العتيقة لا تكون في سائر الدنيا الا في هذه القلعة .. وليس في جميع الدنيا معدن الرصاص القلعي الا في هذه القلعة » (71).

فالنسبة في « السيف القلعية » و « الرصاص القلعي » (الفرنسية : Alkalap الى هذه المعنفة بكله) (72) وقد شهد الادرسي ايضا بأنها المعدن الوحيد للرصاص الايض بالنسبة الى العالم اجمع في زمانه ، فإنه يقول :

« وبهذه الجزيرة (كله) معدن الرصاص القلعي . وهو بها كثير صافي الجوهر ، والتجار يغشونه بعد خروجه عنها ، ومنها يتجز (يجهز) به الى جميع الارض » (73).

ثم يظهر ان مثل هذا المعدن نجم في الاندلس ايضا فيما بعد ، فبدأ التجار يتجلبون عن الهند اليها ، حتى اذا مضى زمن خلط الناس بين المعدنين كما في قول ياقوت :

« القلعة فيما زعم مسر بن المهلل بلد في اول بلاد الهند من جهة الصين ، واليه ينسب الرصاص القلعي والسيوف القلعية ، واقليم القلعة من كورة قلبرة بالاندلس ، وانا اظن الرصاص القلعي منسوبا اليها او الى قلعة بالاندلس فإنه من هناك يجلب » (74) ان شهادة مسر بن المهلل والادرسي ليست موضع الشك ، وكل ما افادنا ياقوت هو ان الرصاص الايض كان في أيامه يجلب من الاندلس بعد ان كان يجلب من القلعة بكله من ذي قبل . ولعل في الاخذ باسم « القصدير » - الذي يرادف الانك الا انه معرب عن اليونانية - ايضا دلالة على التحول المشار اليه من الشرق الى الغرب .

ثم انه يرجع عندي ان المراد ليس « القلعة بكله » بل كلمة « قلعة » هي تعريب « كله » لا غير ، والمعدن المسمى « كله » باللغة المحلية الاما كان واقعا على الساحل الغربي لشبه جزيرة ملايو ،

(71) الفزويني 69 وياقوت « القلعة » و « الصين ».

(72) المغرب للجواليقى ، تحقيق احمد محمد شاكر - ص 276 .

(73) دار الكتب المصرية ، جغرافيا رقم 150 ص 130 .

(74) المشتركة والمفترق 357 .

(75) انظر دائرة المعارف الاسلامية « Kal'i » و « Kalah » .

(76) ص 108 - 109 . قارن ابن الوردي ، القاهرة 1328 هـ، ص 51 .

الرماح

فاطعة لا يتطرق اليها اي شك ان منبت القنا الذى كان العرب يعتمدون عايها لسد حاجتهم - وما اكثر تلك الحاجة - لم يكن غير الهند كما سنبين ذلك آنفا بعد ان نسوق بعض الالتمات ونتعرض لبعض الملابس التي لا بد منها نظرا الى غموض الموضوع.

أولا : القنا = قصب السكر . لا يخفى ان اطلاق القنا على هذا المعنى انما هو على سبيل التبعية والمجاز . وان كان ذلك مطابقا للمألوف في اللغة السنكريتية وبعض اللغات الهندية الاخرى . وعلى كل حال فالمرجع عند العلماء هو ان موطن قصب السكر الاصلی لا يتجاوز ما بين بنفالا والهند الصينية (79) ، والدليل على ذلك ان جميع منتجات قصب السكر اشتهرت في العالم باسمائها الهندية وهما فيما يلي :

1 - Candy = الفارسية والعربية « قند »
= سنس « Khanda » و مليالم « Kandi » (79).

2 - العربية « فانيذ » = الفارسية « بانيد » =
سننس « Phanita » - قارن « Penidium » Med. Lat.
وقد ذكر ابن حوقل والبشاري الفانيذ من اهم الصادرات من مدن السندي: فنجبور ومولتان وطوران.

3 - Sugar = العربية « سكر » =
الفارسية « شکر » = البراكية « Sakkara » /
« سنس » Sarkara .

ومن الطريف في هذا الضدد ان الهند ، وان كانوا اول من قام بانتاج السكر ، سرعان ما بدأوا يستوردونه من الصين ومن مصر ، وذلك لأن الصينيين والعرب ، الذين نقلوا زراعة قصب السكر من الهند الى الصين والى مصر (ثم الى صقلية والأندلس) ، لم يلبثوا ان سبقوا الهند في ابتكار وسائل جديدة للتكرير ، ففاق الصينيون في صنع سكر ناصع البياض بشكل قطع صغيرة ، كما ان المصريين اختصوا بصنعه بشكل قطع كبيرة ، ولم تزل الهند تستورد ذينك الصنفين من السكر من

ذلك هي قصة السيف التي لم تزل تحمل نسبتها الى الهند كشعار لجودة الصنعة وحسن الحقل ، ولتنتقل الان الى الحديث عن الرماح التي طويت نسبتها الى الهند على مر الزمان ، الا انه يمكننا اذا امعنا النظر ان نستشفها من وراء كلمات لا تزال تحمل سمات الغرابة والغرابة مع انها كثيراً ما عدت عربية لا شيء الا لعدم الاهتداء الى اصلها .

يتكون الرمح من جزئين : الاول هو النصل او السنان ، والثاني هو القناة . وغنسى عن البيان ان صناعة السنان متجلسة مع صناعة السيف بل هما صناعة واحدة ، وعلى هذا يصبح من الطبيعي ان يعقب الظن بأن العرب ربما استعملوا الأسنة الصنوعة في الهند الا انه لا يعدمنا من الدليل الإيجابي ما يترفع بهذا الظن الى درجة اليقين ، فاننا نراهم يستعينون بعض الكلمات الهندية للتعبيرات الدقيقة المتعلقة بهذه الصناعة . انظر الى كلمة « الخرس » تبدو كأنها دخلة على مادة « خ ر ص » العربية . فالخرس تعني الجزء الاعلى الذي فيه الحد من السنان ، وهي بهذا المعنى توافي كلمة « Kirch » بمعناها (Malayalam) احدى اللغات الدكтика - ولا زاوية ايضا ، وعل أصلها في لغة جاوة وملايو Kris, Kiris, Kres (77) - وربما اطلقـت الكلمة على القصيب والرمح نفسه كما قال حميد وابن ثور : « عض الثقاف انحرس الخطيا » (78) ولا يخفى ان هذه النسبة الى الخط هي اقوى ما يُؤيد الاصل الهندي للرماح المنسوبة اليها لأن الخط لم تكن الا مرفقا لأسفن الواردة من الهند كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد .

اما الجزء الثاني ، وهو بلا شك اهم الجزئين فقد كان العرب شديدي الاهتمام بالقناة والانتقاء لها حتى ان الشعر العربي يزخر باوصافها ونحوتها الا ان كثرة استعمال العرب للأسماء المختلفة للقناة وما يتبعها وجريها على المستفهم مجرى الكلمات العربية في الاشتقاد وما الى ذلك جعلا اصل تلك الأسماء نسيانا . هذا مع انه قد ثبت بصورة

Hob.-Job. - « Crease, Cris » (77)

السان 8 / 287 . (78)

Hob.-Job. - « Candy » (79)

جدا في المصور الوسطي ؛ ومن المتفق عليه أن كلمة انطباشير إنها هي مقتولة عن سنس « Trakkshira » أي أنها هندية الأصل (81) .

ثم أن الخيزران يصفه العرب انفهم بأنه شجر هندي وهو عروق القناة (انظر اصحاب والتاج « خزر ») أفلأ يكون القناة إذن شجرا هنديا ؟ والخيزران الهندي (82) هو الذي يتمثل به في

الصين ومن مصر إلى مطلع القرن الماضي حتى إنها يعرفان إلى الآن في أسواق الهند باسم « صيني » و « مصرى » على الترتيب (80) .

ثانيا : القنا بمعنى الرمع . يلاحظ في هذا الصدد أن هناك شيئاً يشبه السكر كثيراً ما يتكون داخل القنا (Bamboo Sugar) يسمى عند العرب والفرس « الطباشير » وكان استعماله كدواء شائعا

Hobson-Jobson - « Sugar » (80)

ومما يشهد ببراعة المصريين في هذا المضمار القطعة التالية منقولة عن ماركوبولو : (Ramusio II, 44)

« And before this city » (a place near Fu-chau) « came under the great Can these people knew not how to make fine sugar ; they only used to boil and skim the juice, which when cold, left a black paste. But after they came under the Great Can some men of Babylonia » (i.e., of Cairo) « who happened to be at the court proceeded to this city and taught the people to refine the sugar with the ashes of certain trees » - 1298 A.D.

ومجلة « اللسان العربي » تلاحظ ما يلى :

كان السكر يصنع في شقي العروبة بأفريقيا : المغرب ومصر وقد حدثنا المقريزي أنه كان يسمى سبعة عشر حبراً لمصر القصب كما كان يعلوي عدة أحجار (الخطط ج 1 ص 203) وكذلك في قابس وجلوساً (الباركي في المسالك جزء افريقيه والمغرب من 17 و 32) .

وقد أكد ماس لاطري Latrie أن المغرب كان يصدر السكر في القرن الثالث عشر الميلادي إلى الفلاند والبنديقة (علاقت وتجارة افريقيا الشمالية ص 376) وقد نبه الحسن بن محمد الوزان المعروف - Léon l'Africain على وجود السكر بسوس قبل السعديين ولكن الشرفاء السعديين هم الذين جلبوا أساليب تصفية هذا السكر وتبييضه في معاصر ساهم الاسرى المسيحيون في تأسيسها باكادير وخاصة ، سكواوة وشيشاوة (مستندات دوكاستر ج 1 ص 303) .

ويوجد نص رسالة موجهة من مولاي محمد بن عبد القالب - المسلوخ - عن إذن والده إلى ملك فرنسا مؤرخة من قصر الدار البيضاء (فاس الجديد) في دجنبر 968 (مارس 1561 م) حول استعداد المغرب للسماح للملك شارل التاسع باحتكار سكر المغرب بشرط دفع ثمنه بالسعر المغربي مع زيادة نسبة في المائة وكذلك اصدار النحاس المغربي لفرنسا طبقاً لرغبة ملكها بشرط دفع ثمنه سلاحاً وعتاداً (السلسلة الاولى - السعديون ج 3 ص 746) .

ولما عجز الأوروبيون العجلوبون لعصر قصب السكر في معمل أكوال بمراكب وتصفيته وآخرجه من القوة إلى الفعل عن اتمام عملتهم جلب محمد بن عبد الرحمن الصناع المهرة من مصر القاهرة (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 556) .

واسن مولاي الحسن عام 1878 مصنعاً للسكر بمراكب وكلفة ذاك نفقات باهظة . ولكن هذا المصنع أحيل بعد سنوات إلى مدبقة للجلود (كامبو من 59) .

وقد كان البلاطون الفرنسي والإنجليزي يتنافسان في القرون الأخيرة على اقتناء السكر المغربي المكرر لصفائه وجودته .

(المعجم التاريخي للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله ص 38) .

Hob-Job. - « Tabasheer » (81)

(82) لقد عرف المغرب أن بلاد الروم كانت تمثاز بمنابت الخيزران كما يقول النابغة الجعدي : « بلادهم بلاد الخيزران » (انظر اللسان - خزر) إلا أنه من المحقق أنهم كانوا يجلبونه من الهند ويتمثلون بالهندي منه في شدة اللين . كلما في محيط المحيط - خزر . وقد أورد الفزويني في الآثار ص 38 عن كله : « بها منابت الخيزران منها يحمل إلى سائر البلاد » .

(x) وقد كان أهل Magan أي عمان يستوردون الأخشاب من نفس هذه المنطقة وذلك أربعة آلاف سنة قبل المسيح - انظر : Wilson : The Persian Gulf, p. 27

وهكذا ما ي قوله ابن سيده (المخصص 34/6) عن « الرماح الخطية » أشهر الرماح عند العرب : (الخط مرفأ السفن بالبحرين) (*) ينسب إليها الرماح وليس الخط بمنتهي لها ولكنها مرفأ السفن التي تحمل القنا من الهند كما قالوا مركب دارين (**) وليس هناك مركب ولكنها مرفأ السفن التي تحمل المركب من الهند .

ترى كيف ان القناة المجلوبة من منابتها بالهند والتي ركب عليها خرس او سنان مصنوع في مصانع السيف حول معادن الرصاص الطلق بالهند ، كيف ان هذه القناة هي التي تصبح « رمحا خطيا » بمجرد دخولها حدود جزيرة العرب ؟

السميري :

والحديث عن « الخطى » يذكرنا على الفور بـ « السميري » و « الرديني » . لو رجع أحد الى اللغويين وأصحاب المعاجم لوجدهم يقولون ان السميري نسبة الى سمهر والرديني نسبة الى ردينة وهم زوجان كانوا يقومان ببيع الرماح بالخط ، ولكن المتبع للشعر العربي والمتأمل في اقوال اللغويين وأصحاب المعاجم انفسهم لا يلبي أن يتبيّن ان السميري يفارق الرديني تماماً من حيث الصفات التسوية الى كل منهما ، فالسميري يتميز بصفتين هما : - 1 - الاعتدال ، - 2 - الصلابة ، اما الرديني فيتميز بضد الصلابة وهو اللدونة لانه هو الذي يهتز دون السميري . وعلى هذا نبا له من تحديد الاختصاص بحيث يمارس الزوج والزوجة بيع رماح من نوعين مختلفين - ولعل المفروض انهما كانا يتخذان محليهما جنباً الى جنب في سوق الخط - بدون ان يطغى الواحد منها على الآخر ! وبما لها من مراعاة للمناسبات والصلاحيات بحيث يكون بيع الرماح الصلبة من حصة الزوج ويبيع الرماح اللدونة من نصيب الزوجة !!! وما يزيد اقوالهم ارباكاً كما يزيدنا ارتياحاً ان احداً منهم على الاقل - وهو الزبير بن بكار - ذهب الى ان سمهر كانت فريدة بالخشبة (انظر الناح حيث جاء ان الصاغاني انكر هذا القول ، كما ان بعضهم قال ان سمهر اسم امرأة كانت تقوم الرماح !!!

شدة اللين ومنه قولهما : الخيزرى والخوزرى والخيزلى = مشية فيها تفكك .

وربما افترن اسم القنا بالقسط ما عدا الخيزران عند الربابنة والجغرافيين العرب كما سترى ، ومن المسلم به ان القسط او الكسط هندي بحت (سنن Kustha) (**) وانما نسبوه في بعض الاحيان الى ظفار باليمن لانه كان يجلب اليه من الهند ، القاموس « ظفر » () .

ولنبحث الآن عن الموضع التي كان العرب يترددون عليها لجلب القنا منها ، نجد انها لا تتجاوز ساحل السندي والساحل الغربي والجنوبي لمنطقة الدكن بالهند (**) : فهذا قول ابن خرداذبه 62 : « ومن السندي يجيء القسط والقنا والخيزران » ويقول ايضاً : « ومن مهران الى اوتكن وهي اول ارض الهند مسيرة اربعة ايام ، وفي هذه الارض يثبت القنا في جبالها والزرع في اوديتها واهله عتادة مردة لصوص » - كذلك يقول ابن الفقيه 251 : « خص الله بلاد السندي والهند ب ... القنا والخيزران ... » - وهذه شهادة مسعود بن مهاهل يقول : « وخرجت الى سواحل البحر الهندي متيسراً فسرت الى بلد يعرف بمدورقين منابت غياض القنا وشجر السندي ومنه يحمل الطباشير وذلك ان القنا اذا جف وهبت عليه الريح احتجك بعضه ببعض واشتدت في الحرارة الحركة فانتدحت منه نار فربما احرقت منه مسافة خمسين فرسخاً او اكثر من ذلك ، فالطباشير الذي يحمل الى سائر الدنيا من ذلك القنا . فاما الطباشير الجيد الذي يساوي مثقاله مائة مثقال او اكثر فهو شيء يخرج من جوف القنا اذا هزت وهو عزيز جداً ... » ثم يقول عن مدينة كولم ايضاً : « والخيزران والقنا بها كثير جداً » (انظر ياقوت « الصين ») . كذلك يقول الادريسي : « ومدينة تانة (بالقرب من بومباي) جليلة ... وبجبالها وأرضها يثبت القنا والطباشير يتخذ فيها من اصول القنا ومنها يحمل الى سائر البلاد من المشارق والمغارب » - ص 297 . ويمد ان تفقدنا منابت القنا بوجب علينا ان نقتفي آثار نواخذة العرب لنرى اين تفرغ سفنهم حمولتها

(*) ذكر Pliny اسم موضع Chateni يقع على سواحل الخليج هو الخط ولا شك ، (الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام 309/2) .

(**) Daden/Dirin = البحرين او جزيرة بالقرب منها - (Heeren, II, 230)

كبير عناء بعد ان حطمنا الاغلال التي كانت تقيـد فكرنا . كفانا ان ننظر الى كلمة « Rattan » بالانجليزية هي اسم لنوع معين من الخيزران غابة فى المثانة والجودة ومتماز فناته اكتر من اي شيء آخر بالمرونة واللدونة ، انظر « Rattan » - (Hob-Job.) وما لا يشك فيه ان هذه الكلمة بالانجليزية مقتولة عن « Rotan » بالغة ملايو والهند الشرقية . انهيل يستبعد ان تكون (ردينة) الحلقة الوسطى بين « Rotan » من جهة و « Rattan » من جهة أخرى ليس الا ؟

القنا :

لقد آن لنا ان ندون بعض الملاحظات عن اصل الكلمة « القنا ». اننا رأينا ان العرب ، مع كثرة وصفهم للرماح ، لم يذكروا اي منبت للقنا في ديارهم . بل بالعكس اجمعـتـ الـادـلـةـ كلـهاـ عـلـىـ اـنـهـ كـانـواـ يـعـتـمـدـونـ عـلـىـ مـنـابـتـ القـناـ بـالـهـنـدـ ،ـ وـلـاـ يـفـوتـنـاـ فـيـ هـذـاـ المـاقـامـ اـنـ نـذـكـرـ ماـ اوـرـدـهـ الـجـاحـظـ (ـ الـبـيـانـ وـالـتـبـيـنـ)ـ تـحـقـيقـ عـبـدـ السـلـامـ هـارـونـ (ـ 16/3ـ)ـ مـنـ اـنـ الشـعـوبـيـةـ طـعـنـواـ فـيـ العـرـبـ بـقـوـلـهـمـ :ـ «ـ اـنـمـاـ كـانـ رـمـاـحـمـ مـنـ مـرـانـ وـاسـتـكـمـ مـنـ قـرـونـ الـبـقـرـ ...ـ »ـ لـعـلـ مـغـزـىـ هـذـاـ الـطـعـنـ لـاـ يـعـدـوـ اـنـ العـرـبـ لـمـ يـجـدـوـ فـيـ دـيـارـهـمـ مـاـ يـمـكـنـهـمـ مـنـ صـنـعـ الرـمـاـحـ بـجـزـئـهـاـ الـقـناـةـ وـالـسـتـنـاـنـ ...ـ وـاخـيرـاـ يـجـبـ عـلـيـنـاـ انـ لـاـ نـفـقـلـ اـعـتـبـارـ الـاحـوالـ الطـبـيعـيـةـ الـلـازـمـةـ لـنـوـ القـناـ وـهـيـ تـنـحـصـرـ فـيـ سـفـوحـ جـبـالـ تـهـطلـ عـلـيـهـاـ السـمـاءـ مـدـارـاـ ثـلـاثـةـ اوـ اـرـبـعـةـ اـشـهـرـ مـتـتـالـيـةـ فـيـ السـنـةـ .ـ اـفـيـوـجـ مـثـلـ هـذـهـ الـاحـوالـ فـيـ جـزـيرـةـ العـرـبـ اوـ شـرـقـيـهاـ وـغـرـبـيـهاـ الاـ فـيـ السـنـدـ وـالـدـكـنـ ايـ السـاحـلـ الفـريـيـ وـالـجـنـوـيـ لـلـهـنـدـ ؟ـ وـيـخـلـ اليـ انـ قـولـ الزـبـيرـ بـكـارـ السـالـفـ الذـكـرـ (ـ بـانـ سـمـهـرـ كـانـتـ قـرـبةـ بـالـجـبـشـةـ)ـ يـخـفـيـ وـرـاءـ حـقـيـقـةـ ثـابـتـةـ وـهـيـ انـ العـرـبـ فـيـ وقتـ مـنـ الـاوـقـاتـ اـخـذـوـاـ مـنـ الجـبـشـةـ بـدـيـلاـ مـنـ الـهـنـدـ ،ـ مـرـجـمـهـ المـضـلـلـ ،ـ

انـ المـهـمـ فـيـ هـذـاـ كـلـهـ هـوـ انـ الزـوجـينـ ،ـ عـلـىـ حدـ تـعـبـيرـ اللـغـويـيـنـ ،ـ كـانـاـ يـبـعـانـ الرـمـاـحـ بـالـخـطـ وـالـخـطـ ،ـ كـمـ رـأـيـناـ آـنـفـاـ ،ـ لـمـ تـكـنـ اـلـاـ مـرـفـاـ لـلـسـفـنـ الـوارـدـةـ مـنـ الـهـنـدـ ،ـ اـذـنـ فـمـنـ الـمـؤـكـدـ اـنـ السـمـهـرـيـاتـ وـالـرـدـيـنـيـسـاتـ كـانـتـ رـمـاـحـاـ هـنـديـةـ ،ـ هـذـاـ بـفـضـ النـظـرـ عـنـ مـنـ قـامـ بـاعـمـالـ بـعـهاـ اوـ تـوزـعـهاـ فـيـ الـخـطـ .ـ اـفـيـسـتـغـرـبـ بـعـدـ هـذـاـ اـنـ يـكـونـ التـجـارـ العـرـبـ قـدـ اـخـذـوـاـ اـسـمـ الصـنـفـينـ مـنـ الرـمـاـحـ .ـ الصـلـبـ وـالـلـدـنـ .ـ مـنـ اـفـواـهـ التـجـارـ الـهـنـدـوـيـوـيـنـ ؟ـ اـنـ مـثـلـ هـذـاـ الـقـيـاسـ يـوـافـقـ مـقـضـيـ طـبـيعـةـ الـعـامـلـاتـ الـتـجـارـيـةـ كـمـ اـنـ يـصادـفـ حـرـصـ العـرـبـ عـلـىـ تـسـمـيـةـ الـاـشـيـاءـ وـالـبـضـائـعـ التـجـارـيـةـ بـاسـمـاهـ الـمـحـلـيـةـ .ـ فـرـبـماـ يـكـونـ سـمـهـرـ اـسـمـاـ هـنـديـاـ جـبـهـ العـرـبـ مـعـ مـسـمـاهـ (ـ اـيـ الرـمـاـحـ الـمـتـازـاـ باـلـاعـتـدـالـ وـالـصـلـابـةـ)ـ اـلـىـ الـخـطـ وـطـبـعـاـ خـفـيـ اـمـرـهـ عـلـىـ النـاسـ لـكـونـهـ غـيرـ عـرـبـيـ ،ـ فـلـذـالـكـ لـمـ يـفـقـهـواـ غـيرـ اـنـ اـنـتـشـرـ بـيـنـ العـرـبـ عـنـ طـرـيقـ ذـكـرـ ذـلـكـ الـمـرـفـاـ بـالـبـحـرـيـنـ (ـ 83ـ)ـ .ـ

ولـلـقـارـيـءـ الـأـرـيـبـ يـتـبـيـنـ فـيـ قـولـ يـاقـوتـ الـأـيـ تـأـيـداـ لـجـمـيعـ مـاـ قـدـمـنـاـ آـنـفـاـ .ـ يـقـولـ يـاقـوتـ :ـ «ـ سـمـهـرـ قـرـاتـ بـخـطـ اـبـيـ الفـضـلـ بـنـ العـبـاسـ بـنـ عـلـىـ الصـوـلـيـ الـمـعـرـوـفـ بـابـنـ بـرـدـ الـخـيـارـ .ـ .ـ قـالـ حـدـثـنـيـ سـلـيـمانـ الـمـدـائـيـ قـالـ حـدـثـنـيـ الـزـبـيرـ بـنـ بـكـارـ قـالـ الرـمـاـحـ السـمـهـرـيـةـ نـسـبـتـ اـلـىـ قـرـيـةـ يـقـالـ لـهـاـ سـمـهـرـ بـالـجـبـشـةـ .ـ قـلـتـ اـنـاـ وـحـدـتـنـيـ بـعـضـ مـنـ يـوـقـنـ بـهـ اـنـ هـذـهـ الـقـرـيـةـ فـيـ جـزـرـ مـنـ النـيلـ (ـ الـأـثـارـ الـقـزـوـيـنـيـ صـ 30ـ)ـ جـوـفـ النـيلـ)ـ يـأـتـيـ مـنـ اـرـضـ الـهـنـدـ عـلـىـ رـاسـ مـاءـ كـثـيرـ مـنـ القـناـ فـيـ جـمـعـهـ اـهـلـ هـذـهـ الـقـرـيـةـ وـيـسـتوـقـدـونـ زـوـالـهـ وـبـيـعـونـ جـيـدـهـ وـهـوـ مـعـرـوفـ بـأـرـضـ الـجـبـشـةـ مـشـهـورـ .ـ وـقـولـ مـنـ قـالـ اـنـ سـمـهـرـ اـسـمـ اـمـرـأـ كـانـتـ تـقـومـ بـفـعـلـ الرـمـاـحـ فـانـهـ كـلـفـ مـنـ القـولـ وـتـخـمـينـ (ـ *ـ)ـ .ـ

الـرـدـيـنـيـ :

لـكـ اـنـتـقـاءـ شـخـصـيـةـ سـمـهـرـ يـسـتـلزمـ اـيـضاـ عـدـ بـقـاءـ رـدـيـنـةـ كـأـرـمـلـةـ تـخـيرـ فـيـ خـطاـبـهاـ مـنـ يـخـلـفـ فـيـ بـيـعـ الرـمـاـحـ الـصـلـبـةـ ،ـ اـلـاـ اـنـ تـلـكـ مـسـأـلـةـ لـاـ تـسـتـدـعـيـ

(83) لمـ اـسـتـطـعـ الـجـزـمـ بـالـاـصـلـ الـهـنـدـيـ الاـ اـنـهـ لـفـتـ نـظـريـ الـكـلـمـانـ الـتـالـيـتـانـ الـعـبـرـتـانـ عـنـ الـاعـتـدـالـ
والـصـلـبـةـ :ـ SAMA, even, level... straight - Williams : Sanskrit-English Dictionary, p. 1066.

KHARA, hard, harsh, rough... dense - Ibid., p. 74

(*) هذا ونجد مثلاً آخر لهذه الاسطورة بالذات فيما يتعلق بكلمة « السندرة » (انظر ص 68 الآية) وقد ادرك القتببي ان القول « السندرة امراة كانت تتبع القمح وتوفي الكيل » مجازفة لجا اليها الذين وقفوا حيارى أمام كلمة اعجمية الفوا استعمالها وعرفوا مدلولها لكن لم يدرروا ما اصلها .

انعت قوسا نعمت ذي انتقاء
جاء بها جالب بروضاء
بعد انتقام منه وانتقاء
كافية الطول على انتهاء
مجلوزة الاعكب في استواء
سالمة من آبن السماء

(البيان والتبيين 93/3 - 94)

وانظر ايضا الى قول آخر للرقاشي في صفة
القناة التي تبرى منها القسي :

من شنق خضر بروضيات
صفر اللحاء وخلوقيات
جدل حتى اضن كالحيات
دائقا غير مؤنثات
انفهم متقطرات
عمرو بن عصفور (85) على استثناء

(المصدر نفسه 3 / 71)

لا يخفى ان بروض ا كما وردت الكلمة مضبوطة
في القطعة الثانية والتي جعلها الشاعر « بروضاء »
- « بروضاء » بالضاد المعجمة تحريف من الكاتب
ليس الا - في القطعة الاولى لضرورة الشعر) كانت
ميناء هاما على ساحل كجرات فوق بمبای حاول
العرب عدة مرات ، قبل فتحهم للسندي وابان حكمهم
لها ، الاستيلاء عليها (راجع فتوح البلدان للبلاذري)
وهي لا تزال مدينة معروفة باسمها القديم
« Bharoch »

والشريح بمعنى المود يشق منه قوسان (انظر
قول الشماخ : « شرائح الببع براها القواس »)
هي « chari » بالجيم علامه المعجمة باخرها .
ومنه يقال لخطى نيري البرد شريجان .

ولا ننسى كيف ان ياقوت خلط بين كله (القلعة)
وبين معدن القصدير بالأندلس لاسباب متشابهة (*)
اذن اهل كلمة « قنا » نفسها معربة من
الهندية « ganna » لبراكريتية « gandoo »
السكريتية « gandaka » (*)

الوشيج :

اذا كان « الخطى » هنديا فهل من الغريب ان
يكون « الوشيج » - الذي لا ينت الخطى الا هو -
هنديا ايضا ؟ ذن اصل هذه الكلمة هو (Vansha)
والجيم في الاخر علامه الجمة لا غير . وقد عهدنا
بالدقة والاتقان وان كلمة الوشيج وما اشتق العرب
منها الا دليل على التشر بالطبيعة واستخلاص
المعنى العامي من مظاهرها فان كل من اتفق له ان
يتمتع بنظرة الى منبت القنا ليقدر تمام التقدير ان
اهم ما يروع المرء من اشجاره هو التغاف سيقانها
وتعانق أغصانها ، ومنه قولهم الوشيج بمعنى
القرابة ، والوشيج بمعنى الاشتباك . واذا كان احد في
شك من هذا فليستظر الى كلمة « البيش » (84)
لا ريب في انها هندية معربة اصلها (Visha/Bisa)
استخلص العرب من شجرته معنى الخضراء
والتضاربة فقالوا « بيش الله وجهه » ولاحظوا ايضا
ان شجرة البيش شديدة الثبات والتآصل فقالوا
« أباش الشجرة » .

القسي

اما فيما يتعلق بالقسي ، فقد كفانا الجاحظ
مؤنة البحث عن اصلها بقوله : « وكل قوس بندق فانما
جيء بقناتها من بروض ومدح بيريها وصنعتها عصفور
القواس . وقال الرقاشي :

(*) انظر من 34 السابقة .

Nainar, S. Muhammad Husayn : Arab Geographers' Knowledge of Southern India, Madras, (*)
1942, p. 193, note 29, vide Platts : Hindustani Dictionary.

(84) « البيش وهو نبت لا يوجد الا بالهند » كما في الآثار للقزويني ص 85 .

(85) لو كان سمهر مثقفا للرماح او بيعا لها لكان من الشعراء القدماء
بإشارة صريحة الى ذلك مثل ما نجد امامنا بخصوص عمرو بن عصفور ، ولكننا بخلاف ذلك
نراهم ، حسبما اعرف ، دائما يذكرون « السمهرية » و « الردينية » و « رماح ردينة » (الشماخ ،
ديوانه ص 98) من غير ان يزيدوا شيئا ثم يجيء اللغويون فيفسرون هذه النسبة كما بدا لهم
بدون اي سند على نحو ما فصلنا الكلام عنه .

الكلاب السلوقيه

يذكر عند العرب ذكر الكلاب « السلوقيه » وهي على حد قولهم منسوبة الى ساقق فربة باليمن الا انهم لا يستقررون على رأي بل يظهرون كأنهم يحومون حول (Sileucia) = سقية التي يصفونها بمدينة الروم (معجم البكري) و مدينة اللان ومدينة بالشام ، البندان ليماقت و اللان) . لكن الجدير بالاهتمام تصریح الفرزوینی بأن « الكلاب يسفهون الذئاب »⁽⁸⁶⁾ فتاتی بالكلاب السلوقيه » (الآثار ص 29) . وذلك يذكرنا بمشاهدة الاسكندر بارض الهند وبصحبة الملك (Saubhuti) ل الكلاب لا ترخي قبضتها على الاسد حتى ونو قطعت ارجلها . قيل انها من نتاج الكلاب من النمور ⁽⁸⁷⁾ ، ثم ذكر ايضاً ان اهل بابل كانوا يستوردون الكلاب من الميناء الهندي المعروف (Barygaza) = بروص ⁽⁸⁸⁾ كما نعرف ان الموكب التاريخي لبطليموس Philadelphus كان حافلاً بالكلاب الضواري الهندية الى جانب النساء الهنديات وانتوايل الهندية » . وبعد هذا كله نعثر على قول ابن رسته الاتي في معرض الكلام عن ملوك الهند :

« وبعد ملك يقال له نجابة ⁽⁴⁾ وهو شريف فيهم وبهرا الملك يتزوج فيهم ، وهم السلوقيون ولا يتزوجون الا فيهم لشرفهم وهذه الكلاب السلوقيه يقال انها وقعت من بلادهم ولهم الصندل الاحمر في بلادهم وغياضهم .. الخ » ⁽⁸⁹⁾ .

وسفورة القول ان قضب الهند على العموم هي التي كان يضرب بها المثل بما يقول الشاعر :

قضب الهند والقنا اخذانك

والمقادير في الورى اعوانك

١١٧٢/٥٤٠ وجاء في كتابات الجرجاني ٦٣ ان الشاعر هندي

القطن ومنسوجاته

لا شك ان الهند هي الوطن الاصلي لشجرة القطن الا ان الشجرة الهندية الاصيلة كانت طويلاً اعمراً كما يبدو من اقوال القدماء . أما الشجرة التي تزرع سنوياً فالمظنون انها نتجت على ايدي العرب في العراق وسوريا والبلاد المجاورة ، على كل حال افترضت هذه الشجرة بالعرب الى حد انها هي والسكر والدين ربما اعتبرت المقومات الثلاثة لحضارتهم في نظر الاوربيين (Watt, p. 569) هذا وقد اشتهرت الهند منذ قديم الزمان بالجودة ودقّة منسوجاتها التي كان الثوب منها يدخل في حلقة خاتم ، كما شهد بذلك سليمان التاجر (سلسلة التواریخ ص 30) ، ويدرك ابن خرداذبه ⁽⁹⁰⁾ ص 70 ان « الشال » و « الشیت » و « الفوطة » من الاسماء الهندية المعرفة .

وبالاضافة الى منسوجات القطن امتازت الهند ايضاً بصناعة الثياب من الحشيش ا ابن خرداذبه ⁽⁹¹⁾ ص 70 .

(86) من طرائق النساخ ان « الذئاب » تحولت الى « الثعالب » حيث جاء في صبح الاعشى 42/2 نقلاً عن المقر الشهابي ابن فضل الله ان السلوقيه « مولدة بين الثعالب والكلاب » !!

Cam. Hist. of India, 1/407 (87)

Hœren, 2/207 (88)

الاعلاق النفيسة ص 135 . (89)